فارس الكلمة



المتنبي أبو الطيب

أمسيت أروح مثر خازنا ويدا أنا الغني، وأموالي المواعيد

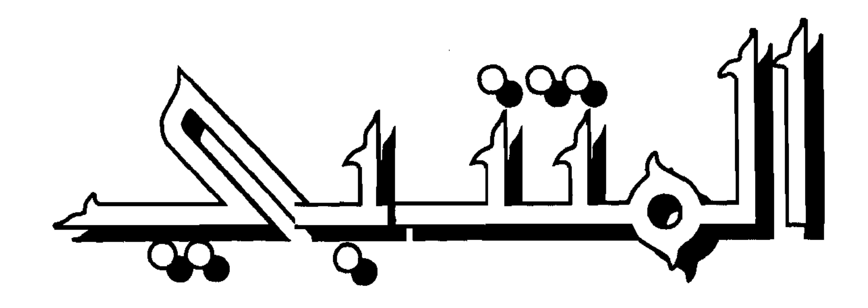
دراسة

عبد المحسن بن علي المطلق

مكتبة التوبة

طراد .. إثر

فارس الكلمة



٣٠٣ - ٣٥٤هـ

أمسيت أروح مثر خازنا ويدا «أنا» الغني، وأموالي / المواعيد

دراسة للشاعر

عبد المحسن بن علي المطلق (*)

(الطبعة الثانية)

(*) albayan62@yahoo.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المطلق ، عبدالمحسن علي.

فارس الكلمة . المتنبي - عبدالمحسن علي المطلق، الرياض ، ١٤٢٥ هـ

١٥٦ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم.

ردمك : ٢ - ٦٠ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠

١- المتنبي ، أحمد بن الحسين ، ت ٣٥٤ هـ ٢- الشعر العربي - نقد - العصر العباسي الثاني أ. العنوان

ديوي ٨١١,٥٠٠٩ ١٢٠٠ / ١٤٢٥

رقم الإيداع : ١٤٢٥/١٢٠٠

ردمك : ٢ - ٦٠ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الثانية ١٤٢٥ هـ

مكتبة التوبة

الرياض - المملكة العربية السعودية - شارع جرير

هاتف ٤٧٦٣٤٢١ - فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ - ص . ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء متواضع لمقام:

إخواني..، وأخواتي - الكرام -

حفظهم الله



بداية

الحمد لله على آلائه الجمّه والصلاة والسلام على المبعوث رحمه وعلى آله الطيبين.. وصحبه..

(اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها..)[١]

..(اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا[٢]، ولا مبلغ علمنا، ولا إلى النار مصيرنا) آمين.

وبعد..

هذا "البسط":

أولاً: لا يحمل قرضاً أو دراسة أدبية لشعره، بل تحقيقاً جدَّ يسير مع خطوات الشاعر ونهجه، وتتبع لأبرز المراحل التي مرّ بها المتنبي،.. وعن ذاته وأحلامه وواقعه والأماني التي سعى خلفها، والمجد الذي بحث عنه.

---

(١) في الصحيحين.

(٢) ..فنشغل بما خُلق لنا -﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾سورة طه، آية٥٠ - عمّا خُلقنا من أجله،.. كما قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾سورة الذاريات، آية٥٦.

ثم.. النتيجة التي انتهى إليها هذا الفارس - بـ دُرر اللفظ - والنهاية المؤسفة التي تسبب بها هو..

تقضي على الإنسان آماله إن لم يُجاهد نفسه.. أولا

فـ/ من المطالب والقتيل القاتل..!

فارسنا.. أبو الطيب "الآلام والآمال":

أين فضلي..إذا قنعت من الدهر بعيشٍ مُعجّل التنكيد
ضاق صدري، وطال في طلب الرزق قيامي، وقلّ عنه قعودي
أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوسٍ.. وهمّتي في سعود

.. واقعٌ لم يهتدِ -أو يركن - إلى تصديقه إلا بعد تجارب أخذت منه زهرة الشباب وفُتّوته.. وحماس - أو اندفاع - منقطع النظير، انتهى به إلى أن يقول:

كيف الرجاء من "الخطوب" تخلصاً .. من بعد ما أنشبن فيّ مخالبا
أوحدنني.،، ووجدن حزناً واحداً متناهياً.. فجعلنه لي صاحبا
..ونصبنني غرض الرُماة تصيبني مِحن أحدّ من السيوف مضاربا
أظمتني الدنيا فلما جئتها مُستسقياً.. مطّرت عليّ مصائبا!

وهذا - الموجز - نُثر إكراماً لعطائه..، لحائلٍ - بُعد البين - عن إكرام شخصه - فهو.. (كما قال) / **كم حبيب لا عذر في اللوم فيه -**

لنجاوب .. قوله - أو رجاءه "الخفي":

ضاق بي ذرعاً من أن أضيق به زماني.. واستكرمتني الكرام

ثانياً: لا يحتاج شاعرنا لمن يقدّم عن شخصه أو شعره.. بـ الإفاضة من غيره عنه، أو إضافة ـ تجلية ـ على نتاجه.. الذي/ ملأ الدنيا (ضجيجا)، وشغل الناس (قريضا).

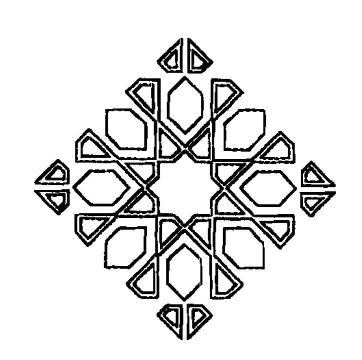
– المرء بعد الموت أحدوثة … يفنى ، وتبقى آثاره –

ولذا.. فقد حرّرت عنهم بشواهد.. مما قيل حياله.[1]

ولعل في ذلك ما يُغني.. عن التسطير لـ.. الذي:

كان في نفسه الكبيرة في جيشٍ.. … وفي كبرياءِ ذي سلطان

عبدالمحسن بن علي المطلق



---

[1] .. من أهل عصرنا..،

أما غيرهم.. فهذا مما يصعب الإتيان عليه.

"فواصل": (*)

١) ".. لعل من أكثر الناس علماً بالشعر، ووقوفاً على مجاري القول فيه: من كان فيه مُعاناة، ومعه تجارب، وهؤلاء هم الشعراء المتقدمون أنفسهم.

فقد أُثرت عن أبي تمام و"المتنبي" وابن الزيات والحسن بن وهب وغيرهم من الحذاق... وصايا وتأملات تكشف عن بعد غورهم، وجميل تصرفهم، وصحيح نظرهم، وكمال معرفتهم..".

أمين عام مجمع الفقه الإسلامي الدكتور/ محمد بن الحبيب خوجه.

٢) ... يقول الأستاذ علي أدهم.. بعد ذكرٍ مُجملٍ عنه[١]:

"وأُرجّح أن المتنبي أقرب شعراء العربية إلى التمثيل العام.. لعبقرية الشعر العربي..، ثم أضاف: ..ولذلك انعقد عليه "الإجماع"، وعمرت بذكره المجالس، وحفلت بأخباره السير، وبقي شعره على الرف"[٢]

٣) .. ولمن/

من تلظي لموعه كاد يعمى — كاد من شهرة اسمه..لا يُسمّى

جاء من نفسه إليها وحيداً — رامياً أصله غباراً.. ورسما

(*) ...ك/ "مقدمة" بأقلامهم.

(١) العدد الخاص لمجلة (الهلال).. عن ذكرى أبي الطيب بمناسبة مرور ألف عام على وفاته –

(٢) – ويقصد بالرف: أي في المتناول القريب للاستشهاد..منه.

حـــاملاً عمـــره بكفيـــه رمحـــاً ناقشـاً نهجـه علـى القلـب وشمـا

(عبد الله البردوني – قصيدة: وردة من دم المتنبي).

٤) .."والحـق.. أن المتنـبي خـيرُ شـاعرٍ في القـرن الرابـع، نهـض بأعبـاء التصنع الثقافي، إذ كان يوازن بينه وبين التعبير الفني، فلم يسقط عنده الشعر العربي بل استمر له كثير من الروعة[١].. غير أنّا لا نتركـه إلى معاصريه.. ومن جاءوا بعده حتى نجدهم يتخلّفون عنه".

رئيس مجمع اللغة العربية بمصر/ د. شوقي ضيف "الفن ومذاهبه" ص: ٣٥٠.

٥) .."لقد عاشرت المتنبي خمسين عاماً، فلم أجد شاعراً عربياً فحلاً تأثر بالجملة القرآنية لفظاً وصياغة وأسلوباً[٢] مثلـه بـين شُـعراء الإسـلام، وأكاد أجزم بأن المتنبي خريج مدرسة الأشراف، ونهج علي.

لم يتأثر شعرياً وفصاحة وتصويراً بيانياً، بكتاب مـا، مثلمـا تـأثر بـالقرآن الكريم: فقد صقل لسانه بآياته، واستولى إعجازه على كل قواه العقليـة، ومواهبه الفنية، وطموحاته السياسية، وانفعـل انفعـالاً وجدانيـاً وبلاغيـاً بروعة معانيه، وحُسن قصصه، وبديع استعارته، وكل ذلك واضح أشـد الوضوح في قصائده وأشعاره.."

أحمد بن محمد الشامي

كتابه/ المتنبي.. شاعر مكارم الأخلاق، ص١٠٧-١٠٨.

---

[١] قال وزير المهدي: (خير الشِّعر: ما فهمته العامة، ورضيته الخاصة).

[٢] كقوله – والأمثلة في هذا كثيرة –:

ضـاق بـي ذرعـاً مـن أن أضيـق بـه زمـــاني،.. واســـتكرمتني الكـــرام

من قوله تعالى في ضيف الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿..وضاق بهم ذرعاً﴾.

٦) ..وكان الإمام محمد متولي الشعراوي رحمه الله يقول:

ليس ثمّة من شعراء.. سوى الأحمدين "المتنبي" ..و"شوقي".[١]

٧) . . .

كأن ما صغت من شعر.. روافده — كالشمس نور من الإعجاز..يرتسم

قل لي ..بربك ..هل نضدتها دررا — في عالم الشعر.. لو لم يعسر الحلم

كم من ولاة مضوا والدهر أغفلهم — وأنت في "الشعر" كم أثنى عليك فم

- من (رسالة إلى أبي الطيب) لـ (د. أسامة عبد الرحمن) -

٨) ويقول د. عبد العزيز السنبل:

الشعراء/ مثل الأطعمة لكل مذاقه ونكهته.. ويظل "المتنبي" شيخهم.

٩) .."إن المتنبي شاعر خلّده التاريخ،.. وهو من القمم الشعرية والتي لا يكاد أن يأتي.. مثله"[٢]. — الشيخ عبد الله بن خميس "الجزيرة" عدد ٩٤٢٤-

١٠) "أبو الطيب المتنبي/ واحد من الشعراء المبدعين الذين استطاعوا أن يجعلوا اللغة كائناً حياً يعيش معه الإنسان ..يُناجيه ويحاوره، ويتفاعل معه، ثم أردف../

ولا خِلاف عند المُنصفين من علماء الأدب أنه لم يبلغ بعد المتنبي في شعره من بلغ شأوه أو داناه، لأن المتنبي يمثل الشعر العربي في أزهى قوّته

---

[١] وربما – من هذا – بالغ أحمد شوقي بشعره..

ولي درر الأخلاق في المدح والهوى — وللمتنبي دُرّةٌ ... وحصاة

[٢] ..إلا ما شاء الله.

وفي نضجه الفني". - إبراهيم عبد الله السماري (الرياض عدد١٠٤٩٠) -

١١) .."مما يميز شعر أبي الطيب المتنبي/ امتزاج الألفاظ والمعاني بطريقة ميسرة تجعلك تتسائل: لم لا أكون أنا قائل هذا الشعر،[1] والسابق إلى معناه.. وما ذلك إلا لمعرفة الشاعر بمعاناة النفس البشرية.. وصدق تعبيره عنها". -د. ظافر القرني – الجزيرة عدد ٨٩٤٥.

١٢) قال الدكتور حسن ظاظا – رحمه الله –:

"... هناك من أبناء العرب الأشاوس من يفتحون نيران ألسنتهم وأقلامهم على من يفضل أيّ شاعر، بأية لغة كانت، على عمِّنا المتنبي!..".

١٣) و.. يوجز الشاعر (د. عبد السلام العجيلي) بـ:

"ما اجتمع أديبان.. إلا وكان المتنبي ثالثهما..".

١٤)"..يحتل "المتنبي" عندي منزلة (الشاعر الأول) في تاريخ الشعر العربي كلّه. فأفكاره التي يُبدعها عقله، وصياغته المحكمة التي يسكب فيها هذه الأفكار المتميزة قلما يملك مثلهما شاعر آخر في عصره أو غير عصره.." -د. محمود جبر الربداوي –

١٥) "..حب المتنبي عندي من المعايير التي يُميز بها الناس، إنه شاعر مهما قلت فيه.. فلن تستطيع أن تُنكر عليه أنه أخو إقدامٍ ونخوة وما شئت من

---

(١) وهذا ما يعبّر عنه بـ "السهل الممتنع".

-.. وقد أبان عن البلاغة (ابن المقفع) بـ:

(إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسنها، فإذا أراد محاكاتها عجز عنها)... –

أَريحيّة، ولن تجد محباً لأبي الطيب إلا ولديه شيء من هذا.. قلّ أم كثر"
- الطيب صالح "المجلة ٧٠٢"-

١٦) ..قال الجواهري - من روائعه -:

ولما استيأسوا من مستميت فلا أرضا أراح ولا ضعانا

أثاروا خلف رحلك عاديات صباحاً تستفز الديدبانا

فكنت الحتف يدركهم عبيداً وأرباباً إذا استوفى وحانا

١٧) وقال الأستاذ/ عبد الفتاح أبو مدين -رئيس النادي الأدبي بجدة-:
شاعر الأمة العربية عبر تاريخها أبو الطيب المتنبي.

١٨)..وكتب منير البعلبكي - صاحب (المورد) - معرّفاً به:
(المتنبي أشهر شعراء العرب، فهم أسرار النفس البشرية وصاغ تجاربه حكماً جرت مجرى الأمثال) معجم الأعلام (١٩٩٠م) قاموس المورد.

١٩) قال عبد العزيز القاسم[1]:

بـ مملكة الشعر يوم الرهان نزلت، وقد جئت من لا مكان

فلا نسب لك عند الرواة ولا حسب في سجل الزمان

فكيف بلمسة قوس أزحت عن (العرش) كل أمير بيان

٢٠) ختاماً: وجاء - حديثاً - في صحيفة الجزيرة (عدد ١٠٠٨٦):
(هو من أعظم أعلام الشعر إذ امتلأ شعره بالحكم والفلسفة، وخلّف رصيداً ضخماً من الشعور الإنساني والحكم الإيجابية والسلبية - ولقد شرح ديوانه

[1] من قصيدة "إلى المتنبي" المنتدى/ عدد ١٩٩.

في زمانه خمسون ناقداً على رأسـهم ابـن جـني، وشـرحه بعـد زمانـه مئـات الأدباء والباحثين[1] ولا غرابة أن يحظى شعر المتنبي باهتمام الأدباء والنقاد في كل عصر وما زال الناس يكثرون الحديث عنه).

.. وهذه "الفواصل" ليست شهوداً بقدر ما هن استشهادٌ ـ حيٌّ ـ في حق ذا.. "الشاعر"/ مالئ الدنيا.. وشاغل الناس!:

..ولعل فيما تقدم كافٍ.. و..وافٍ، - ويكفينا مـن القـلادة مـا أحـاط بالعنق! -

ولا تحسـبنّ المجـد زِقّـاً وقينـة[2] فما المجـد إلا السـيف والفتكـة البكـرُ[3]

.. وتركـك في الدنيـا دويّـاً[4] كأنمـا تـداول سمـع المـرءِ أنملـه العشـرُ

المؤلف

---

[1] انظر ما يأتي ص ١٥٤-١٥٥.

[2] ..وقال غيره:

لا تحسـب (المجـد) تمـراً أنـت آكلـه لـن تبلـغ المجـد حتـى.. تلعـق الصـبرا

[3] من قصيدة يمدح بها (علي بن أحمد الأنطاكي).

[4] ..إذاً:

هو المـوت، فاختر مـا عـلا لـك ذكـره فلـم يمـت الإنسـان مـا حيـي الذكـر

لماذا .. "المتنبي"؟..

بدءاً..

يجب أن نجاري - في هذا المضمار - الذائقة العامة لنصنّف الشاعر، من خلال تواجد شعره، سواءً للاستشهاد من نظمه بكل عارض[1].. أو للتطرب به والتغني منه والتمثيل له..

عندئذٍ يكون - هذا - الشاهد /الحي/ والصادق.. لدعم هذا التقييم، بل والمُصادق عليه بتلقائية.. أو حتى بعفوية.

و لم يكن تمييزي لهذا الفحل من الشعراء - عاطفياً.. أو - عشوائياً![2]

فيعلم الله أنني ما حسبت هذا الصدى البعيد الذي أوجده "شعره" في نفسي.[3]

---

[1] راجع.. - مثلاً - كتابي "ديوان البيان" لتجد أحلى دليل.. على شواهد الاستشهاد.

[2] ويقول محمد كمال حلمي بك (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) عن المتنبي: كانت طريقته في التأليف أحبولة يتصيد بها المُطّلع على شعره فيكتسبه لنفسه، يورد عليه ما يعرف وما يحب وما يطلب، فمثله في ذلك كمثل التاجر الكيّس يجتهد في أن يبيع الناس ما يريدون، فتحبّب إليهم في هذا الباب إذا أعطاهم ما يشتهون لأنه في شعره ربما كان يعمل لنفسه ليرضيها فأرضى نفوسهم تبعاً.

[3] ولست بدعاً في ذلك، أتى الواحدي - ت ٤٦٨هـ- صاحب الشرح المشهور، بعد قرن من وفاة الشاعر ليقول:

"إن الناس منذ عصر قديم قد ولّوا جميع الأشعار صفحة الإعراض، مقتصرين منها على شعر أبي الطيب، ناسين ما يروى.. لسواه."

ولما صنّف أبو العلاء المعري كتاب اللامع للعزيزي في شرح شعر المتنبي وقُرئ عليه أخذ -...

قال الحطيئة:

وتعذلني أبناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذي علمت سعد

فقد قلبت وتقلّبت بين الشعراء ودواوينهم، فما وجدت - على الرغم من قلّة جُهدي بذلك - ما يصادف ذاتي، ويحرّك وجداني الداخلي قدر "شعره"

يا شاعراً هزّ الفؤاد بنبضه فتحرّكت في داخلي الأوتار

..والذي رسم خطا "المجد" - ليصل إلى بؤرة الفؤاد، حتى حداني أن.. أتصرّف ببيته المعروف.. بـ/

إن أكن معجباً.. فعجب عجيب لم يجد فوق شعرهِ من مزيد-

هذا هو الفارس "الضّال" عن ميدان الفروسية، والذي حملت نفسه الاعتزاز والافتخار مع الضعة بالمجد الموروث، والاهتزاز بصحة النسب - أو تواضعه-، إلا أنه لم يُقم لهذين العاملين /رغم مكانتهما/ وزناً ولو على الأقل يوازيهما:

لا بقومي شرفتُ بل شَرفوا بي ..وبنفسي فخرتُ،.. لا بجدودي

...-

الجماعة في وصفه فقال أبو العلاء -وكان أعمى- رحم الله المتنبي!! كأنما نظر إليّ بلحظ الغيب حيث يقول:

كأنما نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

ومعروف مبتدا البيت.. بـ : "أنا" الذي نظر الأعمى...إلخ.

أبو "مُحسِّد" أحاطت به التجارب من كل جانب، وشغلته المعتزمات الجسام، وحطمته الأحداث العظام[1]..

أذاقني زمني بلوى شرقت[2] بها   لو ذاقها غيري لبكى ما عاش وانتحبا

وُلد للنضال والتعالي.. الذي صحبه في مجريات حياته:

أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء   أنا ابن الضراب انا ابن الطعان

يُسابق سيفي منايا العباد   إليهم كأنهما في رهان

ساجعله حكماً في النفوس   ولو ناب عنه "لساني" كفاني

.. ونافح إثر مُبتغاه.. "الذي جلّ أن يُسمى" بعزيمة.. وثباتٍ كالجبال الرواسي، حتى عبّر عن ذلك:

رماني الدهر بالأرزاء حتى   فؤادي في غشاءٍ.. من نبْالِ

فصرت إذا أصابتني سهامٌ   تكسرت النصالُ.. على النصالِ

---

[1] وعرّف به الأديب الشيخ (د. عائض القرني) - كتابه / وحي الذاكرة -:
هذا شاعرٌ عضّته الأزمان، ولسعته النكبات ومزّقت فؤاده الكوارث.. يسكت يسكت ثم يزمجر ناقماً على زمانه وإخوانه، يصمت يصمت ثم ينفجر صائحاً.. يشكو عصره، ويلوم دهره. يهدأ يهدأ ثم يهبُّ من غفوته.. متمرّداً رافضاً.. محتجاً..!

[2] أي: غصصت بها - قال ابن زيدون:

غاض العدا من تساقينا الهوى، فدعوا   بأن نغصّ.. فقال الدهر: آمينا

" **أبا الطيب** ":

صبغة أدبية منحتك إياها المعطي بغير حساب -(سبحانه وتعالى)...- فجابت بك طول الزمان بكل مكان،!..

- فسرت نحوك لا ألوي على أحدٍ   أحثّ .. راحلتيّ: الفقر.. والأدبا -

فالحِكم التي اعتصرتك التجارب لتزفرها لنا قريحتك أصبحت أمثالاً تُحتذى، ومعانيَ تُنتقى...، فلا حديث يخلو من شعرك "إلا ما شاء الله"، ولا منتدى يفيض بالكلم دون استشهاد من أثرك "إلا ما شاء الله":

ما نال أهل الجاهلية كلهم   شعري،.. ولا سمعت بسحري بابل

ويقول لسيف الدولة -.. كأنه يوازي بين شخص الأمير بالإمارة، ونفسه بالشعر -:

إنّ هذا الشّعر في الشعر ملك   ..سار، فهو الشمس والدنيا فلك

عدل الرحمن فيه بيننا   فقضى باللفظ لي، والحمد لك[1]



(1) ...وانظر ما يأتي هامش (١) ص٥٩.

و.."العبقرية":

هل المتنبي عبقري؟

للإجابة على هذا السؤال../ أولاً يجدر بنا أن نُعرّف بالعبقرية لنقيس على ذلك بإذن الله..

فـ: العبقري[1] يعني: الحاد الذكاء.

وهي في أبسط إيضاح لها: (ترجمة الطاقات إلى إبداع وإنتاج فكري).

..ومتى تولد العبقرية؟

إن.. الأحداث - كما نعرف - مرعى للتزاوج بين الإنتاج الفكري والطاقات.

وهذا ـ أي التزاوج ـ فرصة لمن يملك التعبير عن هذه الأحداث ليترجمها. مثلاً:

الخنساء "رضي الله عنها" وجدت الأحداث.. وفاة أخويها - وبخاصة صخر-

---

[1] وقد أُخذ الاسم من وادٍ في الجزيرة العربية، يدعى (وادي عبقر)، يعتقد الجاهليون أن الجن(*) يسكنه.

- (*) للفائدة / قال أبو عبد الرحمن بن عقيل: ورد في حديث حسن - على أقل تقدير - أخرجه ابن أبي عاصم، أن الجن ثلاث أصناف: منهم من يطير في السماء، ومنهم من يرحل ويظعن، ومنهم حيات وعقارب -

(والشيء بالشيء.. يُذكر) - كما يقول "ابن نباتة المصري" -: فقد قيل أن شيطانه يدعى "حارثة بن المُعَلّس".

..وهي طاقة[1] "شعرية"، فمراثيها إنتاج فكري مُعبّر عن "الحدث" مقتل أخويها.

فالأحداث عند المتنبي: فساد السياسة والاقتصاد بزمنه، وتحوّل الإمارة والخلافة "الفعلية" إلى أيدي الموالي والفرس والأتراك. بعد أن كانت بأيدي "العرب".

و..حدثٌ أعظم/ وهو المجد والعُلا اللذان خاضا بالمتنبي أوعر الطرق.. حتى انتهيا به إلى سراب الواقع:

ماذا لقيت من الدنيا.. وأعجبه ... أني بما أنا شاكٍ منه محسود

..أمسيت أروح مُثرٍ خازناً ويداً ... أنا الغنيُّ وأموالي "المواعيد"

.. والمتنبي طاقة شعرية لا يُستهان بها -البتّه- فواحدة من تلك الأحداث جديرة بتفجير مكنون هذه الطاقة، فما البال وتلك الأحداث جرت على من أعطاه "الوهاب" هذه "الملكة" التي ورّثت للأدب "حِكماً" وشواهد ملحمية وتعبيراً عن الذات بلغ مُنتهى الرُّقي.

عبرّ عن ذلك ابن رشيق القيرواني "صاحب كتاب العمدة" بكلمة مشهورة فيه: "ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس".[2]

---

[1] كقولها - إبداعاً:

يُذكّرني طلوع الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمسِ

- أي أذكره في أوّل النهار.. للغاره، وفي آخره للضيفان -

[2] "وطبيعي انه لم يشغل الناس على غير طائل..!" كما يُعقّب أنيس المقدسي -صاحب (أمراء الشعر العباسي) - على كلمة ابن رشيق..

ملأها فعلاً ../ فلم يحظَ شعرٌ عربي من الشهرة ما ناله "شعر المتنبي"[1]!
..فهو بعيد الأثر في حلقات الأدب، شائع بين جميع الطبقات، ليس حظّه بعصره[2] بأقل من حظّه اليوم..
وشغلهم../ فلم ينل شاعرٌ من البحث.. والدراية.. والاقتصاء - عنه وعن حياته وسيرته - كمثله.[3]
إذاً العبقرية -باختصار- هي/ الطاقة المترجمة للأحداث.

---

[1] ..انظر لـ (طلائع المراجع) ما بعد الفهرس.

[2] يُذكر أن الصاحب ابن عباد - حين أبى المتنبي مدحه.. - قال:
لا يُسمعني أحدٌ شعر المتنبي إلا قتلته!
ولمّا توفيت أخت الصاحب.. أتته ستون رسالة "عزاء" مُصدّره بـ:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر   فزعته فيه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم أجد من صدقه بدلاً   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فسأل لمن - البيتين -؟ فقيل له لـ "المتنبي"، فقال هذا كالشمس انتشر فأنشدوا شعره.
و..روي أن رجلاً كان من شدة بغضه، يسأل عنه في كل بلد -يود الإقامة فيها-، حتى سئل عنه في بلدٍ فقالوا لا نعرفه فأقام، وما إن ذهب لخطبة الجمعة، حتى سمع الإمام يقول في الثناء على أسماء الله الحسنى:

أسماءٌ لم تزدنا فيه معرفة   وإنما لذّة ذكرناها

والبيت للمتنبي في مدح (عضد الدولة)،.. فارتحل.

[3] قال عباس العقاد - رحمه الله-:
إذا وجدت الناس اختلفوا على شخص ما..، فهو دليل على مكانته، أو مآثره.
(وقال أيضاً/ - حين تكلم عن عبقرية علي رضي الله عنه -: من مؤشرات العبقرية اختلاف الناس حولها).

وعلى ذلك يكون المتنبي ليس عبقرياً فقط..!، بل عبقرياً فـذّاً[1]. ولّـدت لنا منه هذه العبقرية: شاعراً حكيماً.[2] وتحدّر -إلينا- منها مـيراثٌ أدبـيٌّ خالد.[3]

..."مَن المطالب القتيل القـاتل"؟!..

وهو مع هذا كـ / لغز/ أحــار مـن ترجـم حياتـه، وتنـاول أدبـه وشـرح ديوانه.. لغـزٌ أبقـى للحـيرة [4] مكانـاً تتسـلى بـه في عقـول الأدبـاء،[5] وتلعب بعواطف الأفئدة بتقلب الأحداث!

---

[1] ومما قال الشاعر يحيى توفيق حسن – من مادته "الذات الشاعرة" –:

ثم جاء العبقري المتنبي الذي سـار مـع طبعـه وفطرتـه: فجـاء شـعره في أكـثره مطبوعـاً لا تكلف فيه إلا في القليل الذي اضطر إليه اضطراراً.

– وما اضطرّ إليه (قصيدته) التي تسببت في مقتله، انظر ما يأتي ص٤٥ هامش (٣) –

[2] .. لّما سُئل عن نفسه وأبي تمام والبحتري؟

قال: أنا وأبو تمام حكيمان..، أما البحتري فهو الشاعر

[3] قال عمر فاخوري:

الشاعر "العبقري" يتوجّه بـ/ شعره إلى جميـع الأجيـال، ويخـاطب كـل جيـل بلسـانه.. كاشفاً للجميع عن آفاق.. بعد آفاق..، ـ الفصول الأربعة ص ١٠١ ـ

[4] هل قصد ذلك.. هنا السؤال؟!، قال (فردرك نيتشه):

يحظى الشيء الغامضُ وغيرُ المفسّر.. بأهمية أكبر من التي يحظى بها الشيء الواضح المفسّر!

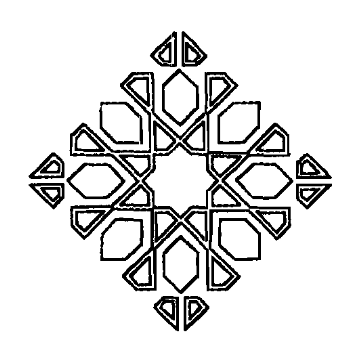
– قال الشافعي رحمه الله:

أمـا تـرى الأُسـد تُخشـى، وهـي صامتـة والكلـب يَخشى وهـو لعمـري نبـاح –

[5] قال الجرجاني – صاحب الوساطة – :

".. ما زلت أرى أهـل الأدب في أبـي الطيـب فئتـين، مـن مُطنـب في تقريظـه.. وعـائب يـروم إزالته.. وكلا الفريقين إما ظالمٌ له أو للأدب فيه، ومن لم يفرق بينهما وقفت به الملامة بين –...

- وتركُك في الدّنيا دوياً كأنّما تداول سمع المرءِ أَنْمُلُه العَشرُ[1] -



...-

تفريط المقصر، وإسراف المفرط، ..وقد جعل الله لكل شيء قدراً".

ويحضرني - هنا - قول (كورتو) في.. "لمحات في فن القيادة":

"هناك طريقتان للحياة: طريقة سلبية قائمة على رؤية مساوئ الرجال والأعمال، ترى الأخطاء ليس لإصلاحها بل لاستغلالها بشكل هدام والعودة إليها بمناسبة وبدون مناسبة، وطريقة أخرى تنظر إلى الأمور بعين الرضا وتبحث عن محاسن الرجال لتنميتها وتحسينها، وترحم ضعفهم وأخطاءهم وتعمل على صلاحها".

[1] يقول العكبري - أبي البقاء (ت٦١٦هـ)[*] - عن هذا لبيت: الدوي: الصوت العظيم، يسمع من الريح، وحفيف الأشجار، والمعنى: يقول: اترك في الدنيا جلبة وصياحاً عظيماً.

- [*] ..وقد فنّد العلامة (مصطفى جواد) - ت١٩٦٩م رحمه الله - صحة الشرح له، ونسبه إلى أبي عبد الله الحسين الأربلي (ت٦٥٦هـ)، كما أورد ذلك عبد الله الهدلق في بحث مطوّل... صحيفة (الرياض عدد/ ١٢٠٦٥) -

... فارس "الشعر"

- أو .."واسطة عقد الدهر في صناعة الشعر"[١] -

طلبت "بالشعر" .. دون الشعر منزلة[٢] فشاء ربك أن لا تُدرك الطلبا[٣]

إيه..، أخا الوفرة السوداء كم ملكٍ أعاضك "التاج" منها، لو به[٤] اعتصبا

أبو الطيب../

..الذي نظر الأعمى إلى أدبه، وأسمع أُذن الدنيا شعره، وأسمى بالقريض منزلته، ليلفت إلى مقامٍ.. تبوأه بـ "الشعر":

إن هذا الشّعر[٥] في الشعر ملك سار فهو الشمس، .. والدنيا فلك

إذاً لن أتحدث عن المتنبي "الشاعر"، لأن ذلك قد يحتاج إلى ضعف أو أضعاف هذا (الجهد..)، بل عن الإنسان.. والذاتية..

---

[١] كما يقول الثعالبي - صاحب كتاب يتيمة الدهر -

وحُقّ لشاعرنا هذا (الوصف) بل.. ولا أدلّ على ذلك مثلاً (والدلائل على ذلك.. كثيرة):

كأن الجفون على مقلتي ثيابٌ شُققن على ثاكلِ

- أو قوله:

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب -

[٢] أي: الإمارة.

[٣] الأخطل الصغير.

[٤] أي: بالشعر "الذي خلّفت"، وهذا مدلول قول الخليفة.. حين صلب الوزير "ابن بقية".. فرثاه "ابن الأنباري" بالمطلع المشهور:

علوٌّ في الحياة وفي الممات كأنك أحد المعجزات

بـ: يا ليتني أنا المصلوب، وقيلت فيّ هذه القصيدة...إلخ.

[٥] يقصد شعره.

من "الطموح الشخصي" الذي ولع بـه، وجعلـه يسـبح بالآفـاق ويقطـع البيادر، ويعدو لبيداءَ.. دونها بيدُ..

هذا.. الذي كاد بمرات أن يجلب المنية لطرفه[1]:

وأنـا الـذي اجتلـب المنيّـة طرفُـهُ فمـن المطـالبُ.. والقتيـلُ القـاتلُ

قبل أن تأتي على يد "فاتك الأسدي" الذي ما حلـم -مطلقـاً- أن يشعّ اسمه، أو يدوّن بالتاريخ.. لولا هذه الحادثة - التي كان ثمنها تغييب الرمـز الأدبي الذي:

كان مـن نفسـه "الكبيرة" فـي جيـ ـش ومـن كبريائـه في سلطان[2]..-

.. فلا على "القريض" أن يُشيّع جدثك والحسرات تزفر.. آهات..

وقـد يمـوت كثـيرٌ لا تُحِسّـهم كأنهم من هوان الخطْبِ ما وجِدوا[3]

..أما (أنت) فلا أُماري إن قلت فيك قصد (المعري) – عن ذاته –:

كـأني لسـان الدهـر لفـظٍ تضمـن منـه أغراضـاً بعـادا

يكررنـي.. ليفهمـني رجـال كمـا كـررت معنـى مسـتعادا

---

[1] قال أبو الفتح البسيسي:

ألم تـرَ أن المـرء طـول حياتـه معنـى بـأمر لا يـزال يعالجـه

كذلـك (دود القـز) ينسـج دائمـاً ويهلـك غمـاً وسـط مـا هـو ناسـجه

فـ../ أسأل الله للجميع الأمن والأمان والسلامة في الدين والأبدان.

[2] أبو القاسم "مظفر بن علي الطبسي".

[3] أحمد شوقي يرثي "ثروت بك".

"البيئة":

.. لقد كان المناخ.. أو الفترة التي عاش فيها المتنبي[1] ذات دويلات تشابه تنافُرها بـ"إرثٍ" قُسّم، دون تحديد النصاب لكل وارث.. - كـ/ قسمة ضيزى -،

مما دعاه يقول..[2] لمدوحه الأوحد..[3] "سيف الدولة":

وسوى الروم خلف ظهرك روم[4] فانظر على أيّ جانبيك تميل؟

..أي ليس عدو (دولة الإسلام) الروم من يُحترز منه، ... بل هناك من لهم حيّز الاحتراز في همّك.. ومن قِبلك.[5]

---

[1] منتصف العهد العباسي "الثاني". - النصف الأول من القرن الرابع الهجري -

[2] بل وقال.. متأملاً لحال هذا الفارس الذي لا يخرج من قتام.. إلا إلى قتام..

أنت طول الحياة للروم غازياً فمتى الوعد أن يكون القفول؟

نبراسه في ذلك - قول أحمد شوقي:

- دعوتهم لجهادٍ فيه سؤددُهم - و(الحرب) أُسُّ نظامِ الكونِ والأُممِ

[3] هذا إذا ما أردنا تصنيف مديحه -.. أو فرزه -

[4] ..ويقصد بهم (آل بويه).

[5] وهذا المقام ليس لعرض هذه "الوجهة"...،

إذ يكفي تعبير الشاعر.. وإن كان بالغ كثيراً - عنهم - بـ:

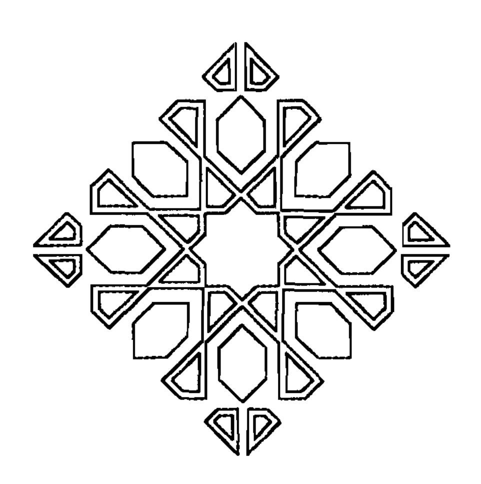
ودهرٌ ناسه ناسٌ صغارُ وإن كانت لهم جثث ضِخامُ

ثم يقول - يعني نفسه -:

-...

-كما أبدع وصف حاله.. معهم:

وكيف يتمُّ بأسك في أناسٍ   تصيبهم فيؤلمك المصابُ [1]-



...-

وما أنا في العيش فيهم لكن   معدن الذهب الرغام

- وهذا من معنى.. كرره في سيف الدولة:

وإن تَفُق الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال !! -

[1] ..حتى قال له - وبعد سنين من فراقه - يصف حاله:

أرى المسلمين مع المشركين   إما لعجز، وإما رهب

وأنت مع الله في جانب   قليل الرقاد كثير التعب

كأنك وحدك، وحّدته   ودان البرية بابن وأب

"الإنسان":

في عام ٣٠٣هـ كان مولد أحمد بن الحسين الجعدي الملقب بـ "المتنبي"، و../أبو الطيب: "مالئ الدنيا .. وشاغل الناس"...

وفي الكوفة .. بمحلة تُدعى "كِنده"[١] مكان الولادة والنشأة، ويكفي لما لهذا المكان والتاريخ ما يكونان لهذا "الفتى" من طموح يرتقي به -شاعراً- ليطلب (الإمارة) بهمة تزدري كل هول[٢]...

تزدري همّتي كل مطلب ويقصر في عيني المدى المتطاول

.. وذلك في وقت كثرت فيه الدويلات والإمارات، وتعدد فيه الأمراء..، فما من زاوية أو ركن بهذه الدولة - المترامية الأبعاد- إلا وبه إمارة.. و-عليها- أمير!

ولِمَ لا يطلب ذلك، ويحلم بمثل هذا الأمل..

إذا كان بنظره أن "كافوراً" - وهو مولى- بهذا "العزيز..المنال".

---

[١] قال البغدادي - في خزانة الأدب (١/٣٨٢) -:

وهذه ترجمة المتنبي نقلتها من كتاب إيضاح الشكل لشعر المتنبي من تصانيف أبي القاسم الأصفهاني.. حدثني ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة بها ثلاث آلاف بيت من بين روّاء ونساج، واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة، فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً، فنشأ في خير حاضره، وقال الشعر صبياً ثم وقع إلى خير بادية..إلخ.

[٢] أو.. كما قال غيره:

إذا كنت ترجو كبار الأمور فأعدد لها همة أكبرا

وبين تلاطم آمال هذا "العبقري"، وواقعٍ.. كما وصفه هو:

ودهـــر ناســـه نـــاس صغـــار وإن كـانت لهـــم جثـث ضخـام

نتج عن تزاوجه - هذا التلاطم - شاعر.. رُوي الدّهر بـ"قريضه":

ومـا الدهـر إلا مـــن رواة قصـائدي إذا قلت شعراً، أصبح الدهر منشـدا

وهـذا "التزاوج" جعـل مـن أبـي الطيـب "الحكيـم" في وصـف الدنيـا.. وتصادم المطامع بها، يجول ويتخلل بحثاً عمــن يكتشـفه.. ويُقدّمـه لمقـام "ينال به مأربه ويحظى منه بمطلبه".

وقد أخطأ الوجهة.. بداية "حين ادّعى النبوّة"[1]!

..ثم أدرك أن الفطانة[2] لا تزال بسواد الأمّة، ليعـود عـن هـذا، بعـد أن سجنه أبو لؤلؤة "أمير حمص" حتى استتابه.. وأناب:[3]

---

[1] كما تذكره معظم الروايات، ولعل في "سِفر المتنبي" لمحمود محمد شاكر - ت١٤١٨هـ (رحمه الله)- ص:١٩٩ وما بعدها، ما يكشف "بصدق" عن زيف هذا الادعاء، وهذا ما أُصوّبه من وجهة نظري المحدودة، -بالمناسبة، كتاب "سفر المتنبي" - الذي أصـدره بمناسبة مرور ألف عام على وفاة الشاعر.. /وهو كتابٌ جدُّ نفيس، وقد حوى - بـلا مبالغة - جلّ "سيرة المتنبي" الإنسان والشاعر..، وقد حـاز مؤلفـه عليـه بـراءة جـائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي، في الدورة السابعة عام ١٤٠٤هـ -

[2] ذكر ابن رشيق في العمدة ص٧٥، قوله: أنا أوّل من تنبأ بـ"الشعر" وادعـى النبـوة في بني الفصيص.

[3] .. وقد لقي في سجنه.. ما لقي..، حتى قال - معترفاً -:

..دعوتـــك عنـــد انقطـــاع الرجـــاء ...إلخ

-...

إن أكـن قبـل أن رأيتـك أخطـأ ت، فـإني علـى يديـك أتـوب

وخرج من سجنه وقد علق به اسم "المتنبي".. -مع كراهيته لذلك-

هل (النبوّة..) شيء كنت تزعمه أم الوشاة.. أساؤوا في الذي زعموا؟[1]

وقد روى ابن جني - تلميذ المتنبي وشارح ديوانه - إذ قال:[2]

(سمعت أبا الطيب يقول/ إنما لُقبت بالمتنبي لقولي:

أنا تُرب الندى.. وربُّ القوافي وسِمام العِدى وغيض الحسودِ

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

أنا في أمة تداركها اللـه غريب كصالح في ثمود

فهو لم يتنبأ، وإنما خُلع عليه "اللقب" لتشبهه بالأنبياء في هذين البيتين السابقين...)

وربما وُسِم بذلك لفطنته وحدّة ذكائه ونبوغه في الشعر..

...=

- ونذكر هذه الطرفة..

مرّ ابن أبي لؤلؤة.. على الشاعر، وقد أثّر تكبيل الحديد في السجن على قسماته، فقال له:

﴿فاصبر كما صبر أُولي العزم من الرسل﴾.. -

وله - هنا - منّا الدعاء المأثور: (ربِّ اغفر لي ذنوباً جرأني عليها عفوك)..،

قال أحمد شوقي:

إن جلَّ ذنبي عن الغُفران.. لي أملٌ في الله يجعلني في خير مُعتصمِ

وإن تقدّم ذو تقوى بصالحةٍ قدّمت بين يديه عبْرة الندمِ

[1] د. أسامة عبد الرحمن.

[2] يتيمة الدهر لـ"الثعالبي"، (١-٨٠).

- هـو في شـعره نـبيٌّ ولكـن ظهـرت معجزاتـه في المعـاني -

إلا أن أبا الطيب كان ذكياً حين يُسأل عن سبب التسمية؟ يجيب بقوله: أُخذ من النبوّة[1] "أي المرتفع".[2]

و..قال أبو محمد النهشلي: إن أبا الطيب إنما سُمّي "متنبياً"[3] لفطنته.

.. ولما سأله "ابن خالويه" في مجلس سيف الدولة في ذلك؟، أجاب: لست أرضى أن أُدعى بذلك! - أي تسمية "المتنبّي"- وإنما يدعوني به من يُريد الغضَّ مني، ..ولستُ أقدرُ على المنع.

---

[1] وقال محمد الخولي - كتابه (الأدب النبوي) ص١٥٥ -:

هي/ سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة علتهم في أمر معادهم.. ومعاشهم.

-..ورد عنه صلى الله عليه وسلم، حين سمع قول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قوله..: "هذا من كلام النبوة" -

النبوّة في اللغة: من الإنباء أي الإخبار. قال تعالى: ﴿من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ سورة التحريم، آية٣-٤.

و..قال أبو تمام: **السيف أصدق أنباء من الكتب**

[2] قال الحق سبحانه عن سيدنا "إدريس" عليه السلام: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾"مريم،٥٧". - وقد فسّر الحسن البصري رحمه الله: المكان بـ: الجنة -

[3] قال بيلبوس - من قصيدته "ميرالادا.. وداعاً" -:

(فـ: لنختل مرّةً.. بعد مرة فقد تعبَ القلب بحمل النبوة[*])

[*] أي: من الترفع عن الرذائل.

"المادح": [1]

---

[1] أو الشاعر المدّاح.. كما يلقبه الأديب "عزيز ضياء" –رحمه الله–

.. وربما على ذا بنا الدكتور أسامة عبد الرحمن بيته في الشاعر:

أسرفت في المدح.. لم تترك شوارده إلا عقوداً.. على التيجان.. تنتظم

وهي –أي مدائحه– قد تكون أجمل من "العقود" فالذي يتبدّع لممدوحه بـ –مثل–:

وكيف يشتبه المخدوم والخدم

أو قوله:

وكيف يتم بأسك في أناس تصيبهم فيؤلمك المصاب

أو قوله على لسان من افتدى نفسه منه:

يُسرّ بما أعطاك.. لا من جهالة ولكن مغنوماً نجا منك غانم

أو مثلاً تطرّب السيوف – بزعمه – عند ذكر اسمه:

إذا نحن سميناك، خلنا سيوفنا من التيه في أغمادها تتبسم

إلا أننا لن نغضّ الطرف عن بعض مبالغاته التي قد تُمّج من ذائقة المتلقي..، كقوله لـ "شجاع بن محمد الطائي":

ولولا تولي نفسه حمل حلمه عن الأرض لانهدت ومال بها الحلم

أو قوله في بدر بن عمار:

لو كان علمُك بالإله مُقسّماً في الناس.. ما بعث الله رسولا

أو قوله في كافور:

عدوّك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران

أو قوله – في أبي عبد الله بن سهل الأنطاكي –:

قد شرّف الله أرضاً أنت ساكنها وشرّف الناس إذ سوّاك إنسانا

أو انبهاره بـ شجاعة أميره سيف الدولة لينشأ ذا البيت:

ومستكبر.. لم يعرف الله ساعةً رأى سيفهُ في كفّهِ فتشهّدا

–...

فاصلة - يقول د/ شوقي ضيف: (إن إنزال الشعر منزلة: "حِرفة" تقوم بالمدح.. ولا تقوم بغيره تجزئة يجلّ عنها، ويتبرأ الشعر منها.[1]

إلا أن هناك ملكاً كبيراً ما خُلقوا إلا ليتغنّوا بمدحه[2]، ويتفننوا بوصفه.. ذاهبين فيه كل مذهب، آخذين منه بكل نصيب. وهذا الملك هو "الكون").

ولهذا يقول الحق سبحانه وتعالى في وصف عباده أولي الألباب - بعد أن أسهب عن هذا الملكوت..-:

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب

...-

أو.. قوله فيه - أيضاً -:

ويستكبرون الدهر.. والدهر دونه ... ويستعظمون الموت.. والموت خادمه

-.. انظر ما يأتي ص٤٧ هامش (٢) -

(١) .. ولذلك ..

قال صفي الدين الحلي: "وكنت عاهدت نفسي ألا أمدح كريماً، وإن جلّ، ولا أهجو لئيماً، وإن ذلّ، وذلك للتنزّه عن التشبه بذوي السؤال، والترفّع عن التتبع لمثالب الرجال".

(٢) كقول (البحتري).. يصف "دمشق":

أمّا "دمشقُ" فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى لك مُطريها بما وعدا

..إذا أردت ملأت العين من بلدٍ ... مُستحسنٌ.. وزمانٌ يُشبه البلدا

فليس تُبصر إلا واكفاً خضلاً ... أو يانعاً خضراً.. أو طائراً غردا

النار﴾.[1]، فهو ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[2]..،
فسبحان من أودع فيما أبدع خصائص كآيات تدل على الخالق[3]:
﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾[4]

وقد ذكر "الجاحظ" في (البيان).. قول أحد الخطباء:

"أشهد أن السموات والأرض آياتٌ دالاّت وشواهد قائمات، كلٌ يؤدّي عنك الحجة ويشهد لك بالرُّبوبية موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك، التي تجليت بها لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنسها من وحشة الفكر، ورجم الظّنون. فهي على اعترافها لك، وافتقارها إليك، شاهدةٌ بأنك لا تحيط بك الصفات، ولا تحدُّك الأوهام، وأنّ حظّ الفكر فيك، الاعتراف لك".

..ثم بدأ يتكسّب بـ "الشعر"[5] عسى أن يجمع المال.. ليبلغه المراد،[6] إذ:

---

[1] سورة آل عمران، آية ١٩٠ ـ ١٩١.

[2] سورة طه، آية ٥٠.

[3] ..وصدق القائل:

تأمّل سطور الكائنات.. فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل

[4] سورة طه، آية ١٤.

[5] .. قال عباس العقاد "لا ضير على أعظم الشُّعراء أن يصوغ القصيدة في مدح عظيم يعجب به، ويؤمن بمناقبه..!
لكن الخلاف – كما يراه – في نوع المديح .. لا موضوعه"

[6] أي الإمارة.

لا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله[1]　　ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

.. فبدأ[2] بمدح "علي بن الطائي" التي منها:

ألا كل سمح غيرك اليوم باطل　　وكل مديح في سواك مُضيّعُ

ومدح "علي بن إبراهيم التنوخي"[3] بـ:

أتيناه نطالبه برفد[4]　　فطالب نفسه منه بدين

وبين تنقله على أمصار الشام.. يجد بـ (طَبريّا) الفارس العربي "بدر بن عمار بن اسماعيل"[5] فيُغنّي لسانه.. لابتسام الزمان "بلقائه":

---

[1] .. قال الجاحظ: "إن من فقد المال قلّت الرغبة إليه، والرهبة منه..، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس به..".

قال الشاعر.. بإيضاح:

يمشي الفقير.. وكل شيء ضدّه　　والناس تُغلق دونه أبوابها

..وترى الكلاب إذا رأته　　عبست به، وكشّرت أنيابها

[2] من هنا البدء بسرد مجمل عن إجمال - أو أبرز محطات - سيرته.

[3] وكان قد رثى ابن عمه "محمد بن اسحق التنوخي" بقصيدة هي من عيون الرثاء .. منها يخاطب إخوان الفقيد:

صبراً بني إسحاق عنه تكرّماً　　إن العظيم على العظيم صبورُ

فلكل مفجوعٍ سواكم مُشبّهٌ　　ولكلّ مفقودٍ.. سواه نظيرُ

[4] أي/ عطاء.

[5] هذا البطل الذي نازل الليث بسوط.. فمرغه بالتراب.. لينطق "شاعرنا" الأسد:

تلف الذي اتخذ الجراءة خلّة　　.. وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

مشيراً بفرار الأسد الذي قبله..، لأنه فرّ من "الممدوح" قبل هذا أسدٌ آخر.

أ عيـداً نـرى أم زمانـاً جديـدا؟ أم الخلق بشخصك حيّاً أُعيدا ؟ [1]

ثم يمدح قاضي أنطاكية "أبو العشائر"[2] بـ:

أفعالـه نسـب.. لـو لم يقـل معهـا جَدّي الخصيبُ.. عرفنا العِرق في الغُصُنِ

.. وبعد هذا.. يقضي "شاعر الدنيا" تسع سنين[3] مع الفارس المغوار

---

[1] حتى استطاع حسّاد الشاعر كـ "ابن كروّس" أن يقلب ميل الأمير على شاعرنا.. فأوعز إلى الأمير.. بهذا البيت:

إذا صديـق أنكـرت جانبـه لم تُعيـني في فراقـه... الحيـلُ

- وهنا.. سؤال: هل المتنبي كما نقرؤه في شعره؟، أم أن شعره (صوره) لـ المثالية التي يتمناها؟ ..وهل أبياته وخاصة "الذاتية" تمثّله، أو تعكس شخصيته؟

مثلاً "وفاءه" الذي نظّر لهذه الخلّة د.طه حسين - مع المتنبي ص٣٠٥-:

فهو - كما يقول عنه - لم يُجرَّب تجربة حاسمة.. سوى في علاقته مع بدر بن عمار وأمير حلب وأبي العشائر وكافور، وقد كسب الأوّلين من الشاعر صدق ذلك في ذاته..، فمثلاً: حين توترت العلاقة بينهما، ولقي الأذى من حاشيته.. لم يزد على تركه من غير هجاء - وهو دليل على أن وفاءه قوي حتى غلب الغضب المأثور عنه..

[2] وإن كان قد مدحه - أبي العشائر -.بمطلع جميل وصوره تعبيرية بالغة، إلا أنها مبالغة مُسفّة:

النـاس لم يـروك أشـباه والدهـرُ لفـظٌ.. وأنـت معنـاه

..ولا تقبل قصداً..، إن قُبلت فناً.

وهو بالمناسبة: الذي عرّف -فيما بعد -.بممدوح الشاعر (سيف الدولة الحمداني).

[3] يقول "جورج غريِّب" إن هذه الأعوام "التسعة" أخصب(*) أعوام المتنبي من حيث كثرة الشعر، ومن حيث تنوعه.. ولو لم يكن المتنبي مع سيف الدولة بهذا الشكل.. لفقد فن المدح استقلاله، (المتنبي دراسة عامة، باختصار ص٧٠).

- (*) ويُذكر/ أن قصائده في الأمير الحمداني تربو على نيف وثمانين قصيدة -

القائد والأديب الأمير الحمداني سيف الدولة "أبو الحسن/ علي بن عبدالله بن حمدان"[1] :

---

[1] ذكر ابن خلكان في "وفيات الأعيان": (.. كان سيف الدولة ملكاً على حلب انتزعها من يد (أحمد بن سعيد الكلابي) سنة ٣٣٣هـ، وكان أديباً شاعراً مجيداً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز له، قيل لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء.. ما احتمع ببابه من الشعراء، وله معهم أخبار كثيرة، ولد ٣٠٣هـ - عام مولد المتنبي - وتوفي بعده ٣٥٦هـ بعد مقتل المتنبي بسنتين).

وجاء في يتيمة الدهر - ج١ ص١٥.. وما بعدها -:

(كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم. وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها (وتنزع لباسها) وتفل أنيابها، وتذل صعابها، وتكفى الرعية سوء آدابها، وغزواته تدرك من طاغية الروم الثأر، وتحسم شرهم المثار، وتحسن في الإسلام الآثار، وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ويقال: إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما احتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر، و"إنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها"(*) وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به، فلو أدرك ابن الرومي زمانه لما احتاج إلى أن يقول:

ذهب الذين تهزهم مداحهم ... هز الكماة عوالي المران

كانوا إذا امتدحوا رأوا ما فيهم ... ملأ ريحية منهم بمكان

وكان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياط الكاتب، وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت، كقول -...

كلما رحّبت بنا الروض.. قلنا "حلب" مقصدنا، وأنت السبيلُ
لديك مرعى جيادنا والمطايا وإليها وجيفنا.. والذميلُ[1]

- والذي/ لا الحلم جادٍ به ولا بمثاله[2].. -

وقال في هذه (الفترة) مدائحَ خلّدت اسم الأمير[3] أبد الدهر:[4]

-...

أبي الطيب المتنبي:

خليلي، إني لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومني القصائد)

-(*) وهي كلمة لعمر بن عبد العزيز رحمه الله -

(1) الوجيف: عدو الخيل، والذميل: ضرب من سير الإبل.

(2) ويحمل - هذا العجز - مُبالغة كبيرة، دافعها - إضافة إلى الحب الشخصي له - أفعال هذا الفارس الأمير.. في وقائعه مع الروم، ومن قبل شجاعته البكر في مطلع العشرينات من عمره، دفع شاعرنا - وقد كان مغموراً - ليعجب به ويحب فروسيته:

وإذا امتحنت تكشفت عزماته عن أوحدي النقض والإبرام
وإذا سألت بنانه عن نيله لم يرض بالدنيا قضاء ذمام
مهلاً ألا لله ما صنع القنا في عمرو حابس وضبة الأغنام
لما تحكمت الأسنة فيهم جارت وهن يجرن في الأحكام
فتركتهم خلل البيوت كأنما غضبت رؤوسهم على الأجسام

(3) ..كما قال الشاعر في قصيدة يمدحه بها.. لما استبطأ مدحه:

وعندي لك الشُّرَّدُ(*) السّائرا تُ لا يَختَصِصْنَ من الأرض دارا
قوافٍ إذا سِرنَ عن مِقْوَلي وثبنَ الجبالَ وخُضْنَ البحارَا

- (*) شرداً: لأنها لا تستقر على موضع، أي: تسير بها الركبان في الآفاق..بمدحك، وهذا ما جعل (د. شوقي ضيف) يُثري عنها بـ/ ومدائحه لسيف الدولة تُعدُّ في الذروة لا من شعره وحده، بل من الشعر العربي عامة، فقد صور فيها وقائعه وحروبه

-...

...-

تصويراً تشيع فيه البهجة بالنصر والاعتزاز بالعرب والعروبة - كتابه (الفن ومذاهبه)، ص٣٠٦-

(٤) قال أبو اسحاق الغزي:

لولا أبي الطيب الكندي ما امتلأت مسامع الناس من مدح ابن حمدان

ولذا رُوي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. أنه سأل أبناء (هرم بن سنان) ممدوح "زهير بن أبي سلمى": ماذا أعطيتم زهيراً؟ فقالوا: مدحنا فأعطيناه.. فقال رضي الله عنه: لقد ذهب ما أعطيتموه.. وبقي ما أعطاكم،.. ويكفي زهيراً – مما أثنى به مدحاً لهرم بن سنان – قوله:

تراه إذا ما جئته .. متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

- وقيل في مدح/ حصن بن حذيفة الفزاري –

... وقد اتفق الشعراء في مجلس عبد الملك بن مروان.. أنه أبلغ بيت بالمديح.

ولعل مما قصده البارودي في تعريضه لمادة "الشعر":

أبقى زهير به ما شاءه هرم من الفخار حديثاً جدّ مأثور

وأُذكّر هنا – استرسالاً – بقول (د. حسن فتح الباب).. وذلك عندما تحدث عن شعراء الحماسة.. ثم تطرق للمديح: "..ويكفي أن يُستشهد لذلك بقصائد أبي الطيب في سيف الدولة، فهي لا تصوّر هذا البطل بذاته فقط..! بل إنها تصور مناقب الفروسية العربية من خلال البطل النموذج.

وأضاف:

وتُعّد هذه القصائد ومثيلاتها وثائق فنية يرجع إليها المؤرخون والباحثون في خصائص الأمة العربية، والعلماء الباحثون في سمات النفس العربية.

وقال أيضاً/

و كلها – أي تلكم القصائد – تتضمن لوحات فنية لا تُنسى.. في تصوير المعارك، ...-

ما الدهر عندك إلا روضةٌ أنفٌ يا من شمائله في دهره زهرُ

ما ينتهي لك في أيامه كرمٌ فلا انتهى لك في أعوامه عُمرُ

.. فإن حظك من تكرارها شرفٌ وحظّ غيرك منها الشيب.. والكبرُ

إذ كان المتنبي يُحبه.. ويخلص له، ويخصّه بمقتٍ[1] خالصة..،

وقيدت نفسي في ذراكا محبّةً ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا[2]

- قال (ابن نباتة المصري)..موضّحاً:

...

وصراع المحاربين، وبطولة الفرسان المسلمين...إلخ.

باختصار من - المجلة العربية ٥/ ١٤١٨هـ

.. وعد للإفاضة - أيها القارئ - إلى كتابه "المقاومة والبطولة في الشعر العربي"، ص٩٢ وما بعدها.

ولهذا قال "العقاد" -موجزاً-:

(إن المديح من افضل المقاييس.. لقياس حال الأمة.. والشاعر.. والأدب..، في وقتٍ واحد).

(1) المقتة/ المحبّة الشديدة..، ولا أدلُّ على ذلك.. من قوله - حين عوفي الأمير مما ألَمَّ به-:

المجدُ عوفي... إذا عوفيت والكرمُ وزال عنك إلى أعدائك الألَمُ

ولا نعجب أن نجده.. وهو يُعاتبه لا يدع مدحه/

يا "أعدل الناس".. إلا في معاملتي فيك الخصام، وأنت الخصم والحكم

..ويروى أن سيف الدولة.. حين وصل لمسامعه قول أبي الطيب في عضد الدولة:

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

قال أتراه أدخلنا في هذه "الجملة".

(2) - البيت من قول الأول:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فلطالما قيد الإحسان إنسانا -

ولا عيب فيه.. غير أني قصدته فأنستني الأيامُ أهلاً وموطنا -

..بعد أن وجد به ما يُشبع غروره.. ويفي مبتغى ذاته:

أبصرت بدراً لا يرى (البدر) مثله وخاطبت بحراً لا يرى العِبر عائمه

..غضبت له، لما رأيتُ صفاته بلا واصفٍ[1].. والشعر تهذي طماطمه

حتى أنه بالغ جدّاً.. بمدح ذا الأمير "ابن أبي الهيجاء"[2]:

بالجيش تمتنع السادات كلهم والجيش بابن أبي الهيجاء يمتنعُ

يمشي الكرام على آثار غيرهم وأنت تُنشيء ما تأتي وتبتدعُ[3]

..من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضعُ

وكيف لا يكون لهذا الأمير "الأديب" واصف.. وقد ازدحم بابه الأدباء والشعراء،[4] إنما هذا ما لم يُقيّمهُ لهم، أو يُقْيمهُ.. ببال شاعرنا.

---

[1] حتى قال فيه..

ضاقَ الزّمانُ ووجهُ الأرض عن ملكٍ ملء الزمان وملء السَّهل والجبلِ

- يقول (العكبري) عن هذا البيت: المعنى: يريد أن الممدوح لغرابة أفعاله، وانفراده في جميع أحواله، وما يتابعه من كثرة وقائعه، ويخلّده من جليل مكارمه، وظفره في جميع مقاصده، يحمل الزمان من ذلك ما لا يطيقه، ويكلفه ما لا يعهده، فيضيق عن فخامة قدره، ويقصر عن جلالة مجده، وكذلك تضيق الأرض عما يحملها من جيوشه، ويسير فيها من جموعه، فقد ملأ الزمان بمكارمه ومجده، وملأ السهل والجبل بكتائبه وجمعه -

[2] سمة أبيه.. الذي لُقّب بذلك - لبطولاته وصولاته في ميادين الوغى -

[3] ..يوضح صدر البيت، قول أحمد شوقي:

ما النّاس إلا أوّلٌ يمضي.. فيخلفه الأخير

وإلا لما أنشأ - بكل ثقة -:

أجِزني إذا أُنشدت شعراً.. فإنما بشعري أتاك المادحون مُردَّدا

..ثم إلى "كافور" [1] - بـ (مصر).. بعد أن أحسن الحُسّاد التفريق بين الأمير والشاعر[2]، و..بعدما فاض به الكيلُ-..

...-

[4] كأبي فراس الحمداني[*] القائل في حب الأمير ابن عمه - بكل ما أوتي من جودة السبك -..

ليتك تحلو ، والحياة مريرة وليتك ترضى..، والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني.. وبين العالمين خراب

إذا صحّ منك الودّ فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

وابن خلكان - صاحب (وفيات الأعيان) - وابن خالويه -ت٣٧٠هـ- وغيرهم كثير.

- [*] هو الحارث بن سعيد بن حمدان، ولد بالموصل سنة ٣٢٠هـ، ونشأ يتيماً فكفله سيف الدولة فشبّ على الكرم والشجاعة، وقد توفي عام ٣٥٧هـ - حين حاول الثورة على أبي المعالي ابن سيف الدولة فتغلّب الجند عليه وقتلوه - بالعام الذي توفي فيه سيف الدولة -.. وهو صاحب:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدُّهم (وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ)

[1] "كان (كافور) مولىً لقومٍ من أهل مصر يُعرفون ببني عباس، وكلّم أبو بكر محمد بن طغج - حاكم مصر - صاحبه في بيعه، فوهبه له فأقام على وظيفة الخدمة، ولما تُوفي سيده أبو بكر وكان ابنه صغيراً، قام كافور بتفرده بالخدمة له، ثم قرّب من شاء وأبعد من شاء، حتى إذا ما كبر الغلام وبدأ يُنفّس عن شيء في مكنونه سقاه سماً فمات..، ثم انفرد بالحكم".

- باختصار "جواهر المتنبي" ص ٢٠١ عبد الله عمر خياط -

[2] **وإن بليت بحب مثل وذكم فإنني بفراق مثله قمن**

-.. قمن: أي جدير -

لقيت المرور والشّناخيب دونه   وجبت هجيراً يترك الماء صاديا
أبا كل طيبٍ لا أبا المسك وحده   وكل سحابٍ لا أخصّ الغواديا

ولم يذهب لهذا "المولى"[(١)] إلا رغبة بنيل الحكم "الإمارة"...[(٢)]
بعد أن داهم السبات ذاك الحلم في حلب، وكيف لا يفيق ذو المنى.. بعدما اكتنز من المال ما يكفي.. وأخذ من الشهرة ما يفي، حتى ولو كان نيل الحلم من هذا "المولى".[(٣)] – إذ..

[(١)] كما قال عن ذا محمود سامي البارودي:

لولا أبي الطيب المأثور منطقه   ما سار في الدهر يوماً ذكر "كافور"

[(٢)] قال ابن رشيق – العمدة ص٤٥، ج١:

(.. وقد خطب أبو الطيب هذه الرتبة – أي الولاية – من كافور الإخشيدي، فوعده بها[(*)] – أجابه إليها – ثم خافه لما رأى من تحامله.. وكبره، واقتضاه أبو الطيب مراراً، ومن اقتضائه.. قوله:

وهبت على مقدار كفّيّ زماننا   ونفسي على مقدار كفّيكَ تطلبُ
إذا لم تُنط بي ضيعة أو ولاية   فجودك يكسوني، وشغلك يسلبُ

ثم صرّح بعد ذلك..:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة   سكوتي بيان عندها وخطاب..)

– [(*)] وكان كافور قد وعده بولاية (صيدا).. كما جاء في: الصبح المنبي (١/١١٥) –

[(٣)] قال أحد الفلاسفة: "إذا احتاج الرجل إلى كسرة خبز ولم يظفر بها، فإنه يُقدّم تنازلات كثيرة..!".

حتى ليقول:

ولستُ أُبالي بعد إدراكي العُلى   أكان تُراثاً ما تناولت أم كسبا
–...

.... (لا بدّ دون الشهد من إبر النحل)

كما يقرر هو من قبل! -

فبدأ يستعطف "كافور" ويتزلّف إليه..، وهذه أوّل ترجٍّ:

إذا كسب الناس المعالي بـ "الندى"[1] ... فإنك تُعطي في نداك المعاليا

و..يستحثّه.. بأدب:

وغير كثيرٍ أن يزورك راجلٌ ... فيرجع ملكاً للعراقين واليا[2]

ويتقرب إليه[3] بالحب الشخصي:

أنت الحبيب، ولكني أعوذ به ... من أن أكون محباً غير محبوب

.. ومن باب آخر:

ومثلك من كان الوسيط فؤاده ... فكلّمه عني ولم أتكلم

- مع تمنٍ[4]..

...-

ألم يقل - شاعرنا -: "و..الجوع يُرضي الأسود بالجيفوا!"

[1] أي: العطاء.

[2] ..من معنى قول "الحطيئة" في (علقمة بن علاثة) - وهو يرثيه - وكان الشاعر أمّ نحوه.. فوجده قد مات -:

وما كان بيني لو لقيتك سالماً ... وبين الغنى إلا ليالٍ قلائلُ

[3] ..قال البحتري (زاجراً):

مالنا نعبدُ العباد، إذا كـ ... ـان إلى الله فقرنا وغنانا

[4] وقد قال فيه.. من قبل - واصفاً مُقامه -:

عند الهُمام أبي المسكِ الذي غرقت ... في جوده مُضرُ الحمراءِ واليمنُ

-...

أودّ مــن الأيــام مــا لا تــودّه وأشكو لنـا بيننـا وهـي جُنـده -

.. ثم يطلقها صراحة:

وفي النفس حاجـات وفيـك فطانـة سـكوتي بيـان عندهـا وخطـاب

ولكن ذا "الكافور" أريحة، و"الذكاء" روحـاً.. لم تنطـلِ عليـه مداهنـة[1] الشاعر[2] ليبلّغه.. مأمله.

- فبهـذا .. ومثلـه سـدت يـا (كـا فور)، واقتدت كل صعب القيـاد -

ولما أدرك الشاعر.. "ذا" وأييس منه، خلُص.. مع نفسه نجياً..،

- قال أحد الشعراء:

وعدتـني وعـداً وقرّبتـه تقريـب مـن يثـني بإنجـاز

حتـى إذا قلـت انقضـت حـاجتي رميـت بي مـن جـرف مـواز[3] -

...-

- أي: مَنْ عم جوده العرب كلهم -

(1) "..يُروى أن بشار بن برد مدح المهدي فلـم يُعطه شيئاً، فقيل لـه: إنـه لم يستعذب شعرك يا أبا معاذ؟.. فقال بشار:

والله لقد قلت فيه قصيدة لو أثنى بها أحدٌ على الدهر، ما خشي صروفه، ولكننا كذّبنا فيه القول، فكذّب أملنا فيه".

(2) ..وهو يدرك.. مراد الشاعر.. حين استفتح أوّل قصيدة أمامه بهذه الآلام المبثوثـة مـن ذات تتحرّق - و..دون فطنة أن (**لكـل مقـام مقـال**) كما يقول الحطيئة -:

كفـا بـك داء أن تـرى المـوت شـافيا وحسـب المنايـا أن يكـن أمانيـا

(3) أو كما.. قال "عبيد الأشجعي":

وعـدتْ.. وكـان الخلـف منـك سـجية مواعيـد (عرقـوب) أخـاه بيـثربِ

فسكب على "المولى الإخشيدي" أقذع الهجاء:[1]

سادة كل الناس من نفوسهم   وسادة المسلمين الأ عبد .. القزم[2]

ثم رحل عنه.. خلسة بليلة ليس بها قمر[3]، بعد أن تأسّف على ما ضيّع عنده من ترجٍّ، وما أبلاه من تزلّف.. لعل..!

لكن../ **إن الثناء على التنبالِ.. (تنبال)**[4] – .. كما يُقرّر![5] –

---

[1] وكأنه يردد في صداه – قولاً.. لحافظ إبراهيم –:

رجوتك مرة وعتبت أخرى   فلا أجدى الرجاء ولا العتابُ

ألم يقل..

وشعر مدحت به (الكركد   ن) بين القريض وبين الرقي

أي "يرقيه" – أو يسحره – .. ثم يقول في البيت التالي:

فما كان ذلك مدحاً له   ولكنه كان هجو الورى

أي: إذا كان هذا السيد – المولى.. الكركدن.. الـ.. الـ.. لديكم، فما يكون الرعية: إذاً ذلك المدح هو هجو لمن خلفه.. من علية القوم الذين حوله.

[2] ..وما أجمل الاعتذار الذي مهّده د. غازي القصيبي للذائقة العارفة:

"كل ما نقوله عن كافور من ذمٍ.. ينصرف إلى كافور المتنبي.. وإليه وحده!، أما كافور الحقيقي.. فمكانه الحقيقي محفوظ في التاريخ الحقيقي". المجلة العربية، عدد٢٦٢، –وانظر ما يأتي ص٨٨.. وما بعدها –

[3] مشمراً عن عضديه:

لتعلم مصر.. ومن بالعراق   ومن بالعواصم.. أني الفتى

لكن – الذي يظهر – أن كافور لم يجدّ في طلبه

[4] ولماذا .. هذا الاعتراف.. المتأخر..، يا أبا مُحسّد؟! – و..معنى (تنبال): القصير –...

- قال ابن الرومي:

كل امرئ مدح امرءاً لنواله وأطال فيه.., فقد أساء هجاه[1] -

وأمَّ للكوفة "أطلاله"[2] عائداً، وهو يردد - مع امرئ القيس -:

وقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب[3]

...-

بل و لم يبقَ له.. - بعد أن خاب ما ترجّاه فيه أمله..، وانقطعت عن بلوغ المُنى.. سُبله-

سوى الاستشهاد بقول ابن الرومي:

"مدحتكم طمعاً فيما أؤمله فلم أنل غير حظّ الإثم والنصب

إن لم تكن صلة منكم لدي أدب فأجرة الخط أو كفارة الكذب"

وتجد تلميحاً جميلاً في العجز الثاني: الاعتراف بالكذب.. بمدحه!

[5] بل كان من الحق أن يستشهد.. بقول ابن هاني:

لست الملوم!.. أنا الملوم لأنني أنزلت آمالي بغير الخالق

[1] ..قال "العسكري":

مادحك بما ليس فيك.. إنما يستهزئ بك!!.

و..قال عبد الملك بن مروان - لرجل ودّ أن يُسرّ له -: لا تمدحني!.. فأنا أعلم بنفسي منك.

[2] كما يقول أبو تمام:

و..كم منزل يألفه الفتى وحنينه الدائم لأول منزل

- فـ:

بلادي.. وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي.. وإن ضنّوا عليَّ كرامُ -

[3] ..وهذا مما عبّر عنه سلفه (رهين المحبسين) المعري بقوله:

جرّبت دهري، وأهليه.. فلم تترك لي التجارب في ودّ امرئ غرضا

..فراسله ابن العميد[1] المُلّقب "بالجاحظ الثاني" وزير ركن الدولة..
فمدحه أبو الطيب:

بأبي وأمي ناطق في لفظه ... ثمنٌ تُباع به القلوب وتُشترى

ثم ودّعه، بعدما أتاه كتاب "عضد الدولة" بفارس، يسأله المسير إليه،.. ويدخل "شاعرنا" بلاد (فارس).. فيرى الحُسن وجمال الطبيعة يخلب اللب!.. ليصف نفسه[2] - ابن الفيافي والقفار - بين أفياء هذه "المغاني":

.. ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسانِ
ملاعب جنّة.. لو سار فيها ... سليمان[3] .. لسار بترجمانِ
إذا غنّى الحمام الورق فيها ... أجابته أغاني القيانِ
يقول بـ"شُعب بوّان" حصاني: ... أعن هذا.. يُسار إلى الطعانِ؟

---

[1] قال عنه الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر":
(كان يقال بدأت الكتابة بعبد الحميد، وانتهت بابن العميد).

[2] ..من قصيدة يمدح بها عضد الدولة.. وولديه، مطلعها:

مغاني (الشّعب) طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمانِ

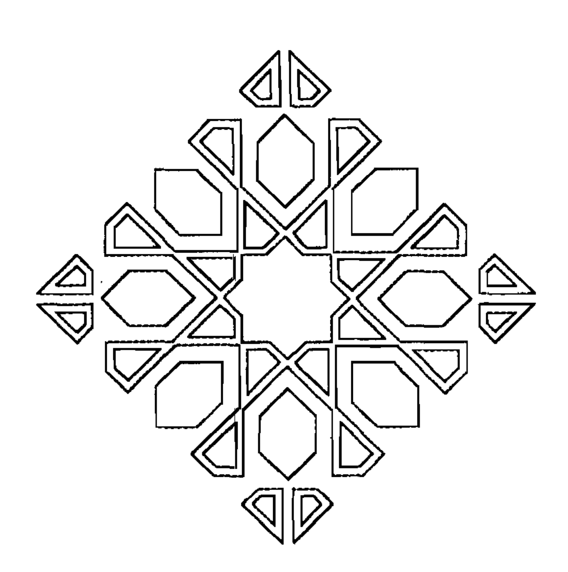
-..وقد أثرى (العكبري) في شرح هذا البيت: مغاني: واحدها: مغني، وهو المكان الذي فيه أهله، والربيع: الزمان الطيب، وهو الفصل الذي بعد فصل الشتاء، تخرج فيه الأزهار، وتورق الأشجار، والمعنى: يقول: مغاني الشعب - وهو شعب بوان، وهو موضع كثير الشجر والمياه، يعدّ من جنان الدنيا، كنهر بالابلة، وسفد سمرقند، وغوطة دمشق - طيبة في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان، فهي تفوق سائر الأمكنة طيباً، كما يفوق الربيع سائر الأزمنة -

[3] سليمان بن داوود - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - الذي عُلّم منطق الطير.

.. ثم يجيب على حصانه بالتفاتةٍ إلى عضد الدولة "أبي شجاع" مادحاً:

فقلـــت إذا رأيـــت أبـــا شـــجاع سـلوت عـن العبـاد.. وذا المكـانِ

فـإن النـاس والدنيـا طريـــق إلى مــن مالـــه في النـاس ثـــان



" الخاتمة "..

.. ويُختم لصاحب الـ [٥٦٢٣] بيتاً ـ بما جناه على نفسه ـ:

وأنــا الــذي اجتلــب المنيــة طرفــه .. فمــن المطــالب والقتيــل القــاتل

فبعد وداعه لعضد الدولة – معتذراً له بشوق العودة إلى أهله[1] –، خرج من "شيراز" عائداً إلى الكوفة..[2] اعترضــه "فــاتك الأســدي" في جماعـة معه وقتله هو وابنه مُحسّد ومفلح غلامه..

– إذ كان المتنبي هجا ابن أخت فاتك "ضبة"...[3] بـ:

---

[1] تُرى هل حس الشاعر بقرب الرحيل.. وهو ينشئ لعضد الدولة هذا البيت:

أروح وقــد ختمــت علــى فــؤادي بــأن يحــلّ بــه ســواكا

[2] وذلك في مطلع شهر شعبان ٣٥٤هـ.

[3] وهو (ضبة بن يزيد العيني..)

والسبب/ جاء في ديوان المتنبي هامش (١) ص٢٠٤ – قيل:

احتاز أبو الطيب بـ "ضَبّه" فامتنع عنه بحصن له، وكان يجاهر بشتمه وشتم من معه، وأرادوا أن يُجيبوه بألفاظه القبيحة، وسألوا ذلك أبا الطيب، فتكلفه لهم.. على كراهية منه..، منها:

إنمــا قلــت.. مــا قلــ ــتُ رحمــة بــه.. لا محبــة

ثم يلتفت للمهجو:

يــا قــاتلاً كــل ضيــفٍ فنــاء صفيــح وعُلبــة

وخــوف كــل رفيــق.. أبــاتك الليــل جنبــه

..ومــن يُبــالي بــذمٍ إذا تعــوّد كســبه

إن أوحشــتك المعــالي فإنهــا دار غربــة

=...

(مـــا أنصـــف القـــوم ضُبّـــــة وأمّـــــه الطُّرطبّـــــــة)

وذلك في "دير العاقول" -النعمانية - في الشمال الغربي من سواد بغداد قبل عيد الفطر ٣٥٤هـ.. لِتُغلق[1] صِحاف ذا الذي:

كـان مـن نفسـه الكبـيرة في جيـ ـش ، ومـن كبريائـه.. في سُلطان[2]

فكان المُأمّل.. (الحفرة) التي رمت بهذا الفـارس إلى هاوية كانت ملاذ النفس "المبتغى":

ومـن يـكُ قلـبٌ كقلبـي لـه يشـقّ إلـى العـزّ قلـب التّـوى

-...

أو أنســـــتك المخـــــــازي فإنهـــــا لـــــك نســـــبة

..وإن جهلــــت مُـــــرادي فإنــــه بــــك أشـــبه

..وهكذا يتضح للقارئ أنها - كما قيل - من أردأ شعره.

(1) قيل كثيراً عن سبب مقتله.. ، إلا أن هذه القصيدة هي المتكأ.. ، والله أعلم..

..كـم في المقـابر مـن قتيـل لسـانه(*) كـانت تهـاب لقـاءه الشـجعان

. . و/

كـم مـن حـروفٍ تجـرّ الحتـوف ومـن نـاطق ودّ لـو أن سـكت !

أيضاً:

كـم حديـث يظنُّـهُ المـرءُ نفعـاً وبـه - لـو درى - يكـونُ البـلاء

- (*) احـذر لسـانك أيهـا الإنسـان لا يلدغنّـك.. فإنـه ثعبـانُ -

(2) لأبي القاسم/ المظفّر علي الطّبسي - يرثيه - وجاء منها:

لا رعـى الله سـرب هـذا الزمـان إذ دهانـا في مثـل ذاك اللسـان

مـا رأى النـاس ثـاني المتنـبي أيّ ثـانٍ يـرى بكـر الزمـان

كـان مـن نفسـه الكبـيرة في جيـ ـشَ، ومـن كبريائـه..في سـلطان

وكبت الجموح..، ليتوقف ذلك السيل الهادر - من جبل- ..وبين دفّتيه عزم دفعه إلى سلك الوعر من الطريق، حتى ليقول مستأسداً:

.... **أمـات المـوت.. أم ذعـر الذعـر؟!**

... رغم طوله - أي الطريق - و..بُعد مرماه، الذي للأسف /كان/ سراباً يصله إلى سراب..

و لم يخطئ لأنه سلك طريق المجد -أو- "المطلوب"

بل أن تركيبته النفسية وحدّة في الطبع[1].. قد تكونـا أعاقـاه عـن بلـوغ "المرام".

ولكن لا يجب أن تكون تلك "عيوب" لأن مقابل تلك العيوب.. ميزات أوصلت بهذا الحكيم إلى أعلى المراتب.. - مقامه شعرياً -[2] وشيء يدرأُ

---

[1] -..انظر ما يأتي ص١٢١ ..وما بعدها -

[2] مع التسليم بتقرير من سبق.. في نقد هذا "النسق".. قال ابن سلام وأبو عبيدة:
".. وما تشاء أن تطعن في شعر شاعر.. إلا وجدت مطعناً" -الأغاني ج٢، ص٤٦-
.. وراجع ما أنكره العلماء من شعره -مثلاً - في كتاب (الوساطة) لـ أبي الحسن الجرجاني، ص ٣٢٩-٣٦١.
.. وعلّق أحدهم على هذا "البيت"

فتى ألـف جـزء مـن رأيـه فـي زمانـه أقـل جزيـئ بعضـه الـرأي أجمـع

أنه.. ركّب من التقديم والتأخير والحذف والإبهام.. مالا يُباح مثله، في أساليب الكلام
..واقرأ - إن شئت - تعقيده:

لو لم تكـن مـن ذا الـورى الـذي منك هـو عقمـت بمولـد نسـلها... حـواءُ
-...

شيء[1].. – فـ:

..مـن ذا الـذي مـا سـاء قـط ومـن لـه الحُسـنى فقـط –

بل وهذه ـ النهاية ـ هي شرك (الوهم) الذي داعب أحلامه:

تحتقـر عنـدي همـتي كـل مطلـب ويقصـر في عيـني المـدى المتطـاول

ولهذا الذي خلفه تلك النفس الأبية التي بين جوانحه.. كانت دافعاً لهذا الطلب:

ومن يبغ مـا أبغي مـن المجـد والعلـى تسـاوى المحايـا عنـده والمقـاتل..

حتى أزفر عن صدره..[2] وكأنه يلمس.. ويتحسس قرب الرحيل /بـ/

.. بعد إدراكٍ مُتأخّر.. أن:

...

(لا تعليق...!!)

إذ ليس فيما أنشأ "هنا" ما قصده أبو سعيد القرشي – في أرجوزته (فن الضرائر) –:

وربمـا تصـادف الضـرورة بعـض لغـات العـرب المشـهورة

بل حتى أنه لم يسلم.. من أقل من ذلك – راجع ما قيل في كلمة (مسبطر) –أي: ممتد– وهو يرثي أم سيف الدولة، حيث عُلّق على سوء اختياره هذا.. كثيراً.

وهذا يذكّرنا بإنكار عبد الملك بن مروان على شاعره – ذا النظم اللين – (جرير) بلفظة (بوزع).

ومع هذا يظل (عيب الكبير.. كبير) كما قال جمال الدين الأفغاني للسلطان العثماني –

[1] ..فـ:

أقـل ذا (الـود) عثرتـه، وقفـه علـى سـنن الطريـق المسـتقيمه

ولا.. تسـرع بمعتبـة إليـه فقـد يهفـو ونيتـه سـليمه

[2] فلا جديد في إنشائه.. حين يقول عن "دهره":

وهـان .. فمـا أبـالي بالرزايـا .. لأنـي مـا انتفعـت بـأن أبـالي؟

وقت يضيع، .. وعمر ليت مُدّته   في غير أمته من سالف الأمم!!

..أتى الزمان بنوه في شبيبته   فسرّهم.. وأتيناه على الهرم[1]

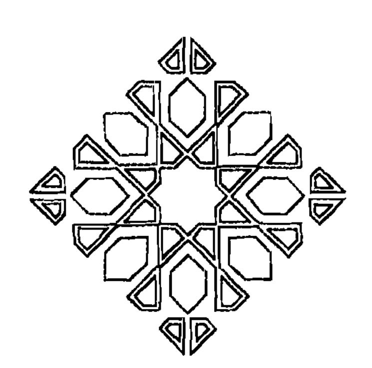
.. وذلك بعدما أفنى جلّ حياته خلف منىً.. حال عن بلوغها ـ مع كِبر ذاته ـ ظروف عصره.. وقلّب حوادثه.

قال أبو الفتح بن جني – راثياً –:

غاض القريض وأودت نضرة الأدبِ   وصوّحت بغدريّ دوحة الأدبِ

ولنستعير له من رثائه للتنوخي:

كفل الثناء[2]..له، بردّ حياته   في رقّة لّما انثنى .. فكأنه منشور



[1] .. وهذا – البيت – يحمل بعض نقض.. مما أنشأ شاعرنا – بعد –:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا   فعناهم من أمره .. ما عنانا

[2] .. على شعره.

" الإبداع ": [1]

---

[1] قال د. عبده زايد: "الإبداع(*) الأدبي.. كالإبداع في أي فن من الفنون، تقف ورائه موهبة لا بد منها.. لكل مُبدع.."

-كتاب (خصوصية الإبداع في الشعر الإسلامي المعاصر) د. سعد الدبل ص٢٣-

..وفي التفاتة للشيخ "الأديب" علي الطنطاوي -رحمه الله-، تنبيه جميل في مثل هذا البيت -لشاعرنا -.. حين قال: **وقفت وما في الموت شكٌّ لواقف**

إن المتنبي لو وقّف هنا.. و لم يُكمل.. لما استطاع أحد "غيره" الإكمال - رحمه الله - ثم أتم: بـ" **كأنّك في جفن الردى وهو نائم**".

- (*) ..وإذا تكلما (مليّاً) عن الإبداع، نقول: من المعلوم أن السجع موطنه "النثر" - وعلى هذا اشتهر - وخذ ممن أُعطي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم إذ قال: (ألا أُخبركم بشراركم؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: من أكل وحده ومنع رفده، وضرب عبده).

و..مثلاً/ قال أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - مُعرّفاً التقوى:

(العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل.. والاستعداد ليوم الرحيل).

لكن تنظر لعطاء شاعرنا - وهو ممن أوتي ناصية البيان - فتجده ينظم بسجعٍ بديعٍ.. يقلّ مثله:

فنحن في جذلٍ، والروم في وجلٍ والبَرُّ في شغلٍ، والبحر في خجلِ

- قال علي السنوسي.. يثني على الملك عبد العزيز:

ها نحن في عصره (الزاهي) على دعة وصفو عيش رغيد.. ما به كدر:

فالدار عامرة.. والسحب ماطرة والأرض زاهرة.. والدين مُنتشرُ-

ومنه - أي السجع - ما يسمى بالترصيع، كقول أبي صخر الهذلي:

سود ذوائبها، بيض ترائبها محض ضرائبها، ..صيغت على الكرمِ

ثم نقول: ما أحلاه إذا كان على البديهة، وبلا تصنّع.

وما الدهر إلا من رُواة قصائدي ..إذا قلت شعراً أصبح الدهر مُنشدا[1]

لا أجد – مع قلّة الاطلاع – كجميل إيجاز الأديب عبد الله خياط[2]:

".. أي شاعر من مطلع التاريخ.. وحتى يأتي أمر الله ويُنفخ في الصور..

إنما يهمّه من كل ما يقول وينشئ من الشعر:[3]

أن يحفظ له الناس قصيدة، أو بضعة أبيات، أو حتى بيتاً واحداً[4]..،

ولقد حفظ الناس – كل الناس على مختلف مستوياتهم واختلاف عصورهم – الكثير من روائع المتنبي..

---

[1] وصف عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – جمال البيان بـ"السحر الحلال"..،

وأخذ أبو تمام هذه الكلمة فأدخلها .. في وصف شعره –مع عدم إغفال مبالغته في البيت الثاني –:

فأين قصائد لي فيك تأبى وتأنف أن أُهانَ وأن أُزالا

هي (السحر الحلال) لمجتنيه ولم أرَ قبلها سحراً حلالا

..ولأبي تمام/ استرسالاً – وهذا من الإبداع أيضاً –: اتفق مرة أن اعترض أحد الأدباء على الاستعارة في قوله:

لا تسقني ماء الملام فإنني صبٌّ قد استعذبتُ ماء بكائي

وأرسل خادمه يقول: إن مولاي يرجوك أن تملأ هذه الكأس من ماء الملام!، فقال حبيب: قل لمولاك يتفضل أولاً بإرسال ريشة من جناح الذل.

[2] من كتابه "جواهر المتنبي" ص٣١٧، باختصار.

[3] قال أبو الحسن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – "قيمة كل امرئ ما يُحسن".

[4] وصدق الله العظيم حين أغوى إبليس أبانا آدم بالشجرة.. في الجنة، بإحدى ميزتين يعمل المرء لنيلهما "شجرة الخلد" أو "ملك لا يبلى" – كما في سورة طه، الآية ١٢٠–

–...

يشهد له.. بذلك: كثرة استعاراتهم واستشهاداتهم، وفي مختلف المواقف والمناسبات بما أبدع".

..فـ دع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي..[1] والآخـر الصـدى

...أجمع سواد أهل الأدب أنه لم يبلغ "في الشعر" كشأنه!

– مـا نـال أهـل الجاهليـة كلهـم شعري،.. ولا سمعت بسحري بابلُ–

إذ/ ذاع من شعره "الحكم" التي علقت على الألسن بالوقائع والمناسبات، وإنك لتعجب.. حين تسمع من أحد "النشء" بيته المشهور:

مـا كـل مـا يتمنـاه المـرء يدركـه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

أو حين تسمع من أحد "العامة":

إذا أنـت أكرمـت الكريـم ملكتـه وإن أنـت أكرمـت اللئيـم تمـردا

...–

قال السيد أبو الحسن:

واعلـم أنَّ المجـد شـيء مخلَّـدٌ وأن الفتـى والمـال.. غـير مخلَّـد

[1] .. ولما لا يكون؟ .. وهو ينظم:

إذا كـان مـا تنويـه فعـلاً مضارعـاً مضـى قبـل أن تُلقـي عليـه الجـوازم

أو..

سـقاكِ وحيانـا بـكِ الله إنّمـا على العيـس نـورٌ، والخـدور كمائمـه

قفي.. تغرمِ الأولى.. من اللحظ مُهجتي بثانيـة.. والمتلـف الشـيء غارمـه..

أو..

وخصـر تثبـت الأبصـار فيـه كـأن عليـه مـن حـدقٍ نطاقـا

أو..

أزورهـم وسـواد الليـل يشـفع لي وأنثـني، .. وبيـاض الصبـح يغـري بـي

أو حين تسمع من أحد "العباقرة":

وإذا كـــانت النفـــوس كبـــاراً ... تعبـــت في مرادهـــا الأجســـام[1]

أو حين تسمع من "مغترب":

شـرّ البـــلاد مكـــان لا صديـــق بهـــا ... وشرُّ ما يكسب الإنسان مـا يصـم[2]

أو حين تسمع من "باسق الذات":

أ عـزّ مكـان في الدنـا ســرجٌ ســابح ... وخـــير جليـــس في الزمـــان كتـــاب

أو حين تسمع لـ "هائم":

وقنعـــت باللقيـــا وأول نظـــرةٍ ... إن القليـــل مـــن الحبيـــب كثـــير

واسترسالاً/ إن أبا الطيب لم يلتفت إلى "الغزل"[3] وإلا ما ظننت أن "ابن أبي ربيعة"[4] تسمو غزلياته.. أمام هذا الحكيم "القائل" - مُحذِّراً.. من الغرام وسُبله -:

---

(1) وقد روي بـ "الأحلام" .. أي العقول بدلاً من الأجسام.

(2) وبالمناسبة/ لا تخلو معظم قصائده من الحِكم وشكوى الزمان "كما يقول":

ألا ليـت شـــعري هـــل أقـــول قصيـــدةً ... فـــلا أشـــتكي فيهـــا ولا أتعتـــب

علّق الأديب علي العيسى على مراد مطلع مثل هذا البيت بـ:

كانت العرب تقول (ليت شعري) أي: تمنوا أن يسعفهم الشعر في التعبير عن اقتضاء الحاجة..إلخ.

(3) انظر ما يأتي ص ٦٩ وما بعدها.

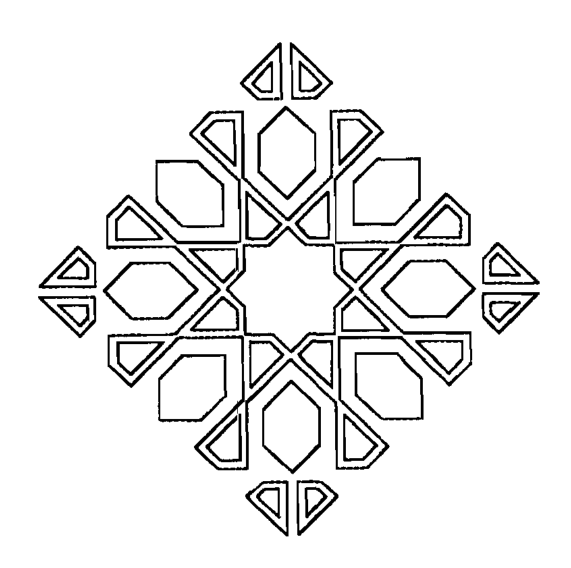
(4) - القائل:

وقديمـــــاً كـــــان عهـــــدي ... .. وفُتونـــــــي.. بالنِّســـــاءِ -

فمـن شـاء فلينظـر إلــيّ فمنظـري نذير إلــى مـن ظـن أن الهـوى سـهل

وهاهو يجمع المعاني:

نصيبـك في حيـاتك مــن حبيــب نصيبــك في منــامك مــن خيــال



و.. " القصيدة ":

لا يشذّ - أبو الطيب- عن القاعدة العريضة "من الشعراء" بإنشاء القصيدة.. فمن "الأطلال":

لكِ يا منازل في القلوب منازل	أقفرتِ أنتِ.. وهن منكِ أوآهلُ

و...:

أثلث.. فإنّا أيها الطلل	نبكي.. وترزم تحتنا الإبلُ

إلى "الصبا.. وربوعه..":

ذكر الصبا ومراتع الآرام	جلبت حمامي قبل وقت حمامي

أو ".. الحبيبة":

هام الفؤاد بأعرابية سكنت..	بيتاً من القلب لم تمتد له طِنبا

ثم.. "النفس": [1]

---

[1] وذلك عن "حاله" وقت النظم.

".. قيل له - لما مدح ابن العميد.. بـ هذا المطلع

بادٍ هواك.. صبرت أم لم تصبرا	وبُكاك.. إن لم يجرِ دمعك.. أو جرى
... كم غرّ صبرك.. وابتسامك صاحباً	لما رآه، وفي الحشا.. ما لا يُرى ! -

ما أسرع ما تغيرت؟، فقال: هذه حالٌ..، وتلكم حال !! "

وقياساً على هذه "الحال".. تجده - مثلاً - يقول،

لا تلقى دهرك إلا غير مكترث	...إلخ

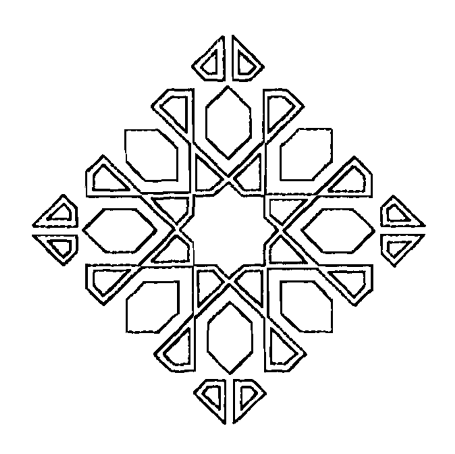
ثم ينظم - في وضع.. آخر -:

والهم يخترم الجسيم نحافة	...إلخ

أسـري في ظـلام الليـل وحـدي　　كـأني منـه في قمـر منـير

فـ .. متن "القصيدة" - الموضوع - ثم "الختم"..، وهذا في المُجمل

- عدا المراثي أو الهجاء.. أو بعض قصائد المعارك مع سيف الدولة.[1] -



---

[1] مثلاً "**على قدر أهل العزم تأتي العزائم**".

بالمناسبة: هذا المطلع "المنظوم" حكمة.. ومنطق وتجربة واسعة..، يُستأنف إلى الفهم المباشر دون غموض.. ولا إبهام، إذ هو حديث العارف.. الشارح.

فـ "النموذج":

نظم "المتنبي" قد يكون - وخاصة في حالات الصفاء والانفراج - من أعذب[1] الشعر وأجمله..، راجع مثلاً:

كم قتيل كما قتلت شهيدِ ... ببياض الطلى.. وورد الخدود

أو..:

أ عيداً نرى، أم زماناً جديدا ... ..أم الخلق بشخصك حيّاً أُعيدا

أو..:

أيدري الدمع أي دمٍ.. أراقا ... وأي قلوب هذا الركب شاقا

أو..:

من الجآذر في زيّ الأعاريب ... حمر الحلى والمطايا.. والجلابيب

أو..:

مغاني "الشُّعب" طيباً في المغاني ... بمنزلة "الربيع" من الزمان

.. والعكس - حين تهيج نفسه، وتُولّعه أشجانه، .. أو تعود ذكرى مآسيه - "وخاصة في رثاء جدته":

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذمّا ... فما بطشها جهلاً.. ولا كفّها حلما

وعد -أيها القارئ- لـ:

لا افتخار إلا لمن لا يضام

---

[1] وقد فنّد الرواة - النُّقاد - القول المشهور /المنسوب/ لـ الشاعر الأموي جرير أن: (أعذب الشعر أكذبه).

أو../أُطاعن خيلاً مـن فوارسـها الدهـر

أو../ فـؤاد مـا تسـليه المـدام[1]

أو../ أفاضل الناس أغراض لـذا الزمـن

أو../ واحر قلباه .. ممـن قلبـه شـبم[2]

أو../ بما التعلـل!، لا أهـل.. ولا وطـن

أو "الحمى[3]"/ ملومكما يجل عن الملام

أو../ أمـاتكم قبـل موتكـم الجهـلُ !

أو../ صحب النـاس قبلنـا ذا الزمانـا

أو../ عيد بأية حال عُدت يـا عيـد! [4]

---

[1] أي: الخمر.

[2] شبم: أي بارد..، وهي في عتاب أمير حلب "سيف الدولة".

[3] .. جاء في الحديث عنها .. – إذا أصابت المؤمن في ليلة – قوله صلى الله عليه وسلم : (ذاك نصيب المؤمن من النار) .

[4] وأذكر لأديبنا (د. حسن الهويمل) نثر لا يخلو من تعجّب في قراءته لمطلع هذه القصيـدة حين قال: أحرق أبو الطيب أوراق المتفائلين بالمناسبات السعيدة.. – يعني باستفهامه هذا– – وقال حمد الحجي.. موازياً المقال، ومواسياً للحال:

عيـدُ الغريـب مِـقامٌ وانبعـاث أسـى ... ودمعه – إن شدا الشـادون.. – تغريدُ !

..ونظم على رويها (د. نذير العظمة):

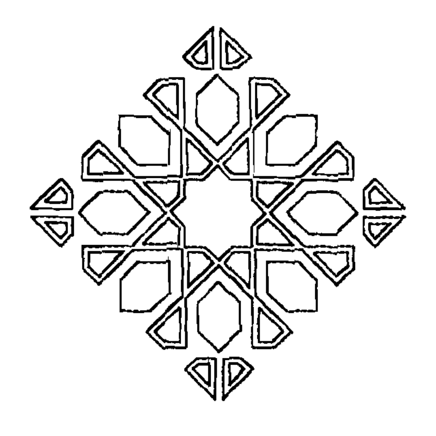
عيـد مضـى ومضـى مـن بعـده العيـد ... لا الكـرم كـرم ولا العنقـود عنقـودُ

.. فكيـف لا تطلـع الأزهـار في فنـن ... وفوقـه تُـذرف الدمـع.. المواعيـدُ

جـار الزمـان علـى عـودي فقصّفـه ... وكـان مـن قبـل أيكـاً وهـو أملـودُ

لتكتشف ما.. لدى هذا "الشاعر" من خزائن الدُّر، وودائع الجواهر.. بما يفيض به عبير: "نظمه"!.

إذ.. حين تصافح "ديوانه" ليـأخذ لُبـابك سبكه للكلمـات واسـتخراجه للمعاني وبراعته التصويرية، وحُسن تمثيله، وبديع طباقـه، ورقّـة ألفاظـه، وجميل البناء لديه، ونشوة في التعبير..إلخ،[1] كل هـذا ممـا يتخلـل أبيـاتَ قصيده..



---

[1] كقوله.. لأبي العشائر -.. مُعرّضاً الفرق بين مدحه، ومدح غيره:

ليس قـولي في شمـس فعلـك كالشمـــسِ ، ولكـن كالشـمسِ في الإشـراقِ

(شـاعرُ المجـدِ) خِدنـه شـاعر اللّفـــظِ ، كلانـا ربُّ المعـاني الدقّـاقِ

..لم تـزل تسـمع المديـح.. ولكـن صهيـل الجيـاد غـير النُّهـاقِ

"الأطلال"

غنيٌّ عن الأوطان.. لا يستخفني إلى بلد سافرت عنه إياب

.. أو - أيضاً-:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

.. لم يقف المتنبي على الأطلال ليبكي "على ماضٍ تولّى"؟![1]..

بل من قبيل التذكر[2] - لا الحنين والتمني بعودته - :

لا تحسبوا ربعكم ولا طلله أوّل حي فراقكم قتله

كأني بهذا الفارس المغوار، قائلاً:

لا تلقَ دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن

يَدفع نفسه دفعاً إلى "المرمى" المراد..

---

[1] ..أو كما قال أبو نواس:

عاج (الشقي) على الرسم يُسائله ..!

بل واستفهامه هذا..، أوضح:

مالي بدار خلت من أهلها شُغلُ[*] ولا شجاني لها شخصٌ.. ولا طلل

ولكنه.. يقول - ناقضاً -:

يا خليليَّ ساعة لا تريما وعلى ذي صبابةٍ فأقيما

ما مَرَرنا بدار زينبَ إلا فضح الحبُّ سرّنا المكتوما

-[*] ومعنى صدر البيت من قول الناظم:

ألا حيّ من أجل الحبيب المغانيا..إلخ-

[2] **مررت على دار الحبيب فحمحمت جوادي، وهل تشجي الجياد المعاهد؟**

فالتغني بتلك الأطلال.. لا يُعيرها المتنبي أكثر من ذكراها فحسب! .. لأنها -فقط.. -:

منازل خالت السرور بها [1]

إلا أن المُطّلع على ديوان شاعرنا يجد شيئاً من ترديد المعاهد والربوع..، وإطلالتها في بعض مطالع قصائده كقوله:

لكِ يا منازل في القلوب منازل	**أقفرتِ أنتِ.. وهن منك أواهل**

وقوله أيضاً:

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا	**فإنك كنت الشرق للشمس والغربا**

- بل.. وكيف جلبت "تلك المراتع" الموت قبل موعده:

ذكر الصبا ومراتع الآرامِ[2]	**جلبت حمامي قبل وقت حمامي**[3]-

ومجارات عينيه.. لتلكم أبين دليل:

أجاب دمعي..، وما الداعي سوى طلل	**دعى فلبيت قبل الركب والإبل**
ظللت بين أُصيحابي أكفكفه	**فظل يسفح بين العذر.. والعذل**

---

(1) محمد بن عثيمين.

- وقال الآخر:

ما بكينا على "زرود".. ولكـ	ـنا بكينا على أيامنا في زرودِ

(2) ..جمع (ريم) صغير الغزال.

(3) قيل أنها في مدح سيف الدولة "قبل لقائهما" بـ ١٦سنة وكان المتنبي يبلغ العشرين من سنّه.

- انظر ما تقدم هامش (٢) ص٣٣ -

إلا أن هذا لا ينفي مُطلقاً ما أسلفت.

..فالإنسان بطبعه حب الماضي لأنه يعني الطفولة -الصفاء.. والنقاء..- والذكريات، والأكثر من ذلك فراراً من (الواقع) -بخاصة إن كان مُرّاً-

..وقد يكون ما يعنيه شاعرنا من تلكم:

وما شرقي بالماء إلا تذكراً　　　لماء به أهل الحبيب نُزول[1]

أو السرور الذي "يرى" أنه لم يدركه من الزمان:

أتى الزمان بنوه في شبيبته　　　فسرّهم.. وأتيناه على الهرم![2]

قد يكون إيضاحي غير وافٍ، لكن ما سنجده عند الشاعر في (الرسوم..، ومراتع الآرام) هو:

الخيال البعيد، وذلك الماضي.. الـ(كان)[3] -فحسب-!

لأنه تغرّب لا مستعظماً غير نفسه.. ولهدف - سامٍ - .. كنّاه بـ:

---

[1] إذاً فهذا السبب.. - كما يبني له المرقّش الأكبر -:

فقولا لها ليس الظلال أجازنا　　　ولكننا جزنا لنلقاكمُ.. عمدا

إنما (عبد الله بن الدمينة) يقول - مبيناً -:

ولكن قرب الدار ليس بنافع　　　إن كان من تهواه ليس بذي ود

[2] .. وإذا كان عهده "هرم الزمان"!، فما نقول نحن.. بـ"زماننا" ؟. قال فواز اللعبون - يبني على هذا الإنشاء -:

أتيتم زمان المجد وهو أخو صبا　　　وجئناه كهلاً.. قد حنى دوننا ظهرا

[3] قال عنه - معبّراً - إيليا أبو ماضي:

بحيرة "الحبّ" حيّاكِ الحياة　　　فلكم كانت مياهكِ بالنجوى تحْيينا

مــــا ابتغـــي جـــلّ أن يُســـمى

وقد تكون أطلاله على قافية قوله:

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة فلا أشتكي فيها ولا أتعتب؟..

بمعنى: إن كان هناك "همٌّ" حضر.. وحاصر شاعرنا في وقتها عتب (الزمان) الذي لم يُبلّغه مراده، وإلا أن لم يحضره تهيّمه.. وجد همّاً آخر – قد يكون:

لحى الله ذي الدنيا مناخاً لراكب فكل بعيد الهمّ فيها مُعذّب–

.. حتى الجواد.. لا ينسى ماضينا بذي الطلال!

مررت على دار الحبيب فحمحمت جوادي، وهل تشجي الجياد المعاهد؟

وهكذا "يُبكينا" على الرّسم القديم، والصبا الذي خالطه منّا.. وأقام: (أيام تجريرنا بدارٍ آثلة أعوادنا..)

بكت عيني "اليمنى"، فلما زجرتها عن الجهل – بعد الحلم – أسبلتا معا[١]

فأطلاله/ بها من دقّة التصوير ما يُصيّرك كأنك.. أمام ربوعك أنت، وقام "هو" ليتحدث بلسانك – ما حال عنه ضعف عبيرك –:

لكِ يا منازل في القلوب منازل[٢]

---

[١] السعدي الشيرازي.. بالمناسبة قال ذلك ارتجالاً في وداع صديق له – مع بيتين آخرين.

[٢] بالمناسبة.. إذا ما عاين "المتذوق" في جميل ما عناه في التحسس.. لصدى "أول منزل" – الطلال – وعهد الصبابة.. بـ "قول أبي تمام":

كم من منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل –...

ثم.. أيها "الخرب"من .. إعمارنا بك:

أقفرتِ أنتِ، وهنّ منك أوآهل[1]

.. وهن - أي القلوب-:

يعلمن ذاك.. وما علمت، وإنما أولاكما يبكى عليه العاقل

... وهذا التذكّر - بعد أُمّة[2] - :

ذكر الصبا ومراتع الآرام

ماذا فعلت.. هذه الذكرى:

جلبت حمامي.. قبل وقت حمامي

أي: كأن تلكم: أماتتني قبل أوآن الأجل!

.. أو حين "يتودد" لها .. بـ

أثلث! فإنّا أيها الطلل .. نبكي، وترزم تحتنا الإبل

.. نحن "نبكي" والإبل حانية "كالباكية".. فلما لا تكن "يا طلل" ثالثنا بذا الحال؟

...-

لقارنّا في "تذوقهما" أيهما الأجمل..؟

فلأن حظي الطائي "أبي تمام" بالسبق "تاريخياً" فالأكيد.. أن لصاحبنا -الجعدي- السبك..، وذا ما لا أجد له لديّ - على الأقل - اعتراض!.

[1] ..وهن - القلوب - أوآهل.. كما يعلّق أحدهم بـ:

(أنها: آهلة بالوجد.. والذكريات).

[2] .."الأمّة".. العهد الطويل، قال تعالى في سورة يوسف -عن أحد السجينين-:

﴿وادّكر بعد أُمّه﴾

وكالمعتذر من عدم إجابة ذا الجماد - بـ ألإثلاث..!-:

لـو كنـت تنطـق قلـت معتـذراً بـي غـير مـا بـك.. أيهـا الرجـل[1]

.. فيا.. "ربوعي" ومرتع "الصبا" إني:

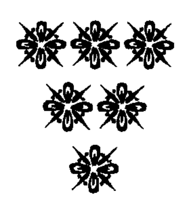
بكيت يـا ربـع حتـى كـدت أُبكيكـا

و.. ربما لما بها من ذكرى - أو/ صدى السنين الحاكي - لا تغيب على تقادم عهدها..، كالحب الأول..:

ولكـنّ حـبّ خـالط القلـب بالصبـا يزيـد علـى مـرّ الزمـان.. ويشـتدُّ

..ولا ننسى قبل طيّ صفحة "أطلاله" أن نذكر بأن أبا الطيب -كما قيل- شارك "عنترة" في ثورته على مطالع القصائد أطلالاً أو تغزّلاً... بقوله - إنكاراً لانسيابة مثل هذه العادة[2] - :

إذا كـان مـدح فالنسـيب المقـدّمُ أكـلُّ فصيـح قـال شـعراً متيـمُ؟



---

[1] ليذكرنا هذا "العجز" بما قاله الأعشى - مُستفهماً -: و..هل تستطيع وداعاً أيها الرجل؟

[2] ..كما سبقه أبو نواس بـ:

قـل لمـن يبكـي علـى طلـل درسْ واقفـاً، مـا ضـرّ لـو كـان جلـس

- وقوله أيضاً:

دع الرسـم الـذي دثـرا يُقاسـي الريـح والمطـرا

"الفراق":

أمـا "الفـراق"[1] فإنـه مـا أعهـدُ هـو "توأمـي" لـو كـان بـينٌ يُولـدُ

ثمّ يسبك.. هذه الحكمة - كـ علّة أو سبب! -:

لـولا مفارقـة الأحبـاب مـا وجـدت لهـا المنايـا إلى أرواحنـا سُـبلا

... والرحيل:

ألفت ترحّلـي.. وجعلـت أرضـي..إلخ

.. وهكذا يفعل به.. "الوداع"[2] أبداً:

حُشاشة نفس.. ودّعـت يـوم ودّعـوا فلـم أدرِ أي الضـا عنـين أُشـيّعُ

إن عمر هذا ـ الشاعر ـ قضاه مُتنقلاً من بلـد.. إلى آخـر، وربمـا الشّـاذ عن هذا المنوال.. ما عبّر به في قصيدة "الحُمّى":

أقمـت بـأرض (مصـر) فـلا ورائـي تخبّ[3] بـين الركـاب.. ولا أمـامي

فما أقام سِوى مُقامٍ عند "سيف الدولة"..[4]

وبرغم جمال تلك الأيام.. إلا أنه لم يعبأ بها.. على حد نظم وتيرته:

---

[1] **ذر النفس تأخـذ وسعهـا قبـل بينهـا فمفترق جـاران دارهمـا "العمر"**

[2] ..ومن جميل ما قيل -..مناسبةً -:

ومـن عجـب أنـي أحـنّ إليهـم وأسأل عنهم من لاقيـت.. ومـن معـي

وتفقدهـم عيـني، وهـم في سـوادها ويشـتاقهم قلـبي، وهـم بـين أضلعـي

[3] تخب: أي تسرع.

[4] تقريباً - عقداً من السنين بـ : "حلب".

غـني عـن الأوطـان لا يسـتخفني إلى بلـد سـافرت عنـه إيـاب

لـذا كـان ـ علـى مـا عهـد مـن نفسـه الـترحل ـ .. أولى أن يقـول "للحمداني":

حيـي مـن إلهـي أن يرانـي وقـد فـارقت "دارك" واصطفاكـا

من أن يقولها لـ "عضد الدولة" .. ولكن ..!

– إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم..فالراحلون هموا[1] –

.. وقد شبّ معه "الرحيل" والبـين منـذ فـارق "الكوفـة" .. طمِعـاً.. في ولاية أو مال.. يُنيله الولاية، ولعل بعض ذا.. ما جعله ينفث.. في رثائـه لجدته:

تغـرّب.. لا مسـتعظماً غـير نفسـهِ ولا قـابلاً إلا لخالقـه حكمـا

.. هذه النفحة "المُعظّمة للذات" والتي تحكمت بـ "جنبيه" جعلت لإقـرار يقرُّبه، ولا محل يحلّ به، سوى وقت نزرٌ عسى ـ وذا المطلب ـ يجد منـه.. ما جدَّ.. له... ليصل مناه..

أمسـيت..أروح مُـثرٍ خازنـاً ويـداً "أنـا" الغـني، وأمـوالي المواعيـد

إلا أنه على عادته ـ التي لا يدعها ـ في الزفر عما يُكنّ داخله.. باثاً[2]:

---

[1] ..وأجمل ما يعارضه قول من سبقه:

استـودع الله قومـاً مـا ذكرتهـم إلا وهـلّ مـاءُ العـين.. مـن عيـني

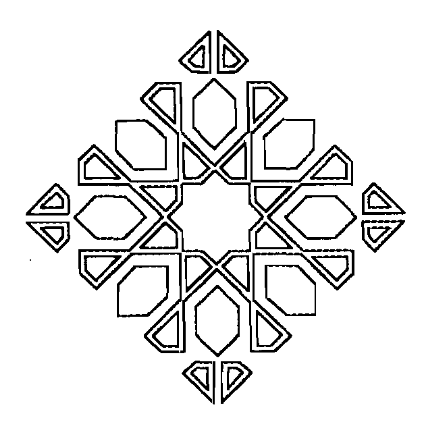
[2] أو/ قول "أبي تمام":

لا تسـقني مـاء المـلام، فـإنني صـبٌّ قـد اسـتعذبت مـاء بكـائي

.. مـن خـصّ بـالذمّ الفـراق فـإنني   من لا يرى في الدهر شـيئاً يُحمـد[1]

.. ولو التفت - الآن - إلينا .. لقال لسان حاله:

لا تلـم كفّـي إذا السـيف نبـا[2]   صحّ مـني العـزم، والدهـرُ أبـى[3]



[1] وقال - توضيحاً - في مطلع رثائه للتنوخي:

إنــي لأعلــم.. واللبيــب خبــير   أن الحيــاة وإن حرصــت غــرورُ

ورأيــت كُــلٍّ مــا يُعلــل نفســه   بتعلّــة.. وإلى الفنــاء يصــيرُ

[2] أي: أخطأ.

[3] - شاعر النيل - حافظ إبراهيم.

" الغزل ":

فمن شاء فلينظر إليّ فمنظري نذيرٌ إلى من ظنّ أن الهوى سهل

لا يُعاب المتنبي في مجون أو شراب أو ترف أو عبث..

لأنه منذ صباه كان جاداً رزيناً، لا يهتم بالغواني ولا ينصرف إلى المطربات من الألحان:

وغير فؤادي للغواني رميّة وغير بناني للزجاج[1] ركاب

تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن[2] لعاب

أعزّ مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وهذا لا تزكية له، بل لأنه جَدّيٌّ... وذا طموح وأحلام، شغلته عن حسان الوجوه:

شغلت قلبه حسان المعالي عن حسان الوجوه والأعجاز

فلم يتلذذ بالهوى وصبّ القلب، رغم ماله من غزليات تجدها في مطالع قصائده، كقوله في وصف "الأسد":

في الخدّ إن عزم الخليط[3] رحيلا مطرٌ.. تزيد به الخدودِ محولا

أو في أُخرى..

ما لنا كلنا جوٍ يا رسول أنا أهوى .. وقلبك المتبول

---

[1] ويرويها ابن جني للرخاخ "من أدوات الشطرنج".

[2] الضمير يعود على "الشهوات".

[3] الخليط: العشير أو قريب السكنى –والقصيدة في مدح الفارس "بدر بن عمار بن إسماعيل"–

ومع ذلك فله أبيات بديعة يحسن منها قوله:

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي ... فأصبح لي عن كل شغل بها شغل

سبتني بدلٍّ ذات حسن يزينها ... تكحل عينيها وليس لها كحل

كأن لحاظ العين في فتكه بنا ... رقيبٌ تعدّى، أو عدوٌّ له دخل

ثم الاعتراف بنار العشق:

يا عاذل العاشقين دع فئة ... أضلّها الله.. كيف تُرشدها

ففي فؤاد المحب نار جوى ... أحرُّ نار الجحيم أبردها

وقوله - وهو صبي[1] - :

بأبي..[2] من وددته فافترقنا ... وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولين... فلما التقينا ... كان تسليمه عليّ وداعا

أو تمهيد.. للإعتذار[3]:

---

[1] .. ويُذكر أن هذين البيتين أول ما نظم - انظر ما يأتي ص١٣٢ -

[2] ..أي: أفديه بأبي.

[3] وقد زعم - من زعم - أنه كان هناك ودٌّ خفي لأخت الأمير.. في قلب شاعره مستدلاً - بهذا الزعم - من قوله.. بعد الفراق:

رمى.. واتقى رميي، ومن دون ما اتقى ... (هوى) كاسراً كفي وقوسي.. وأسهمي

وتأكيداً.. من رثائه فيها - حين عزّى أخاها.. في فقدها - بقوله:

ولا ذكرت جميلاً من صنائعها ... إلا بكيت..، (ولا ودٌّ بلا سبب)

وهل أدل على هذا الاستنتاج -ولا أقول زعمٌ- قول شاعرنا..مخلّداً:**طوى الجزيرة**[*]..إلخ

[*] وهذان البيتان أخذا من الخلود - استشهاداً - ما الله به عليم!.

-...

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى[1] هوى كاسراً كفي وقوسي.. وأسهمي

ومن شواهد صنيعه الفني قوله:[2]

سفرت وبرقعها الفراق بصفرة ستزت محاجرها ولم تك برقعا

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها[3] في ليلة فأرت ليالي أربعا

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

وأيضاً له أبيات "جميلة" متناثرة هنا وهناك:

كل جريح تُرجى سلامته إلا فؤاداً رمته عيناها

* * *

قفي تغرمِ الأولى من اللحظ مُهجتي بثانية و"المتلف الشيء غارمه"[4]

* * *

...-

حتى في عهد الشاعر – انظر ما تقدم ص١٦ هامش (٢) –

(١) أي: من الوقاية، ..ليذكرنا باختراع نابغة بني ذبيان:

سقط النصيف، ولم تُرد إسقاطه فتناولته،.. و(اتقتنا) باليدِ

(٢) لعل رأي الأستاذ جورج غريّب في محله – هنا – عندما قال:

"يلتجئ المتنبي إلى الجمال الفني(*) عندما تخونه حرارة العاطفة.. ويعوزه صدق الأداء".

باختصار ص٢٤٦ "المتنبي دراسة عامة".

– (*) أو ما يسمى بـ "الإخراج الفني" كما يفعل (أمير الشعراء) –

(٣) ..وأخذ أحمد شوقي من هذا "الصدر"، فنظم:

ودخلت في ليلين: فرعك والدُّجى – ولثمتُ كالصّبح المنوَّر فاكِ –

(٤) .. ولنُذكّر بهذه "القاعدة الفقهية".

وخصــر تثبــت الأبصــار فيـــه   كـأن عليـه مـن حـدق نطاقـــا[1]

* * *

كلمـــا عـــاد مــن بعثــت إليهـــا   غـــارمنّي..،وخـــان فيمـــا يقـــول[2]

أفســـدت بيننـــا الأمانـــات عينـــا   هـــا، وخـــانت قلوبهـــن العقـــول

* * *

أنـــتِ منّـــا فتنـــت نفســـك   لكـــنك عُوفيـــت مـــن ضنـــى واشـــتياقِ

ثم..:

لقـد حـازني وجـدٌ بمـن حـازه بُعـدُ   فيـا ليتـني بُعـدٌ ويـا ليتـه وجـد

و.. حين يعترف:

شـــيب رأســـي وذلّـــتي ونحـــولي   ودموعـي.. علـى هـواك شـهودي[3]

أو يكون صادقاً حين يوجز عن حبيبه:

حبيـــبٌ كـأن الحسـن كـان يُحبّـه   فـآثره أو جـار في الـحُسن قاسمـه

---

[1] جاء في (الصبح المُنبي) أن "السري الرفاء" لما سمع المتنبي ينشده قال:

(..هنا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون).

- وقد أخذ هذا المعنى.. في إنشائه، قول الآخر:

أحـــاطت عيـــون العاشـــقين بخصـــره   فهـــل لـــه دون النطـــاق نطاقـــا -

[2] أخذ نزار قباني من هذا النظم.. فأنشأ:

كـــم رســـول أرســـلته لأبيهـــا   ذبحتـــه تحـــت النقـــاب العيـــون

[3] ألا يكفي.. هؤلاء الشهود!!

.. ويأتي الحكيم هنا.. ليعرّف "ماهية الحب":

الحب: ما منع الكلام الألسنا وألذُّ شكوى عاشقٍ ما أعلنا

وتهتز النفس الأبية.. حين ينفذ الصبر:

أجد الجفاء على سواكِ مروءة والصبر.. إلا في نواكِ جميلا

حتى الدلال - برغم عدم التعامل به أو معه.. إلا هنا - :

وأرى تدللكِ الكثير محبباً وأرى قليل تدلل مملولا[1]

وهل شخصُ هذا الأبيّ المغوار.. يتحول لمنذر يُهيب من يعشق من "العشق":

فمن شاء فلينظر إليّ فمنظري نذيرٌ إلى من ظنّ أن الهوى سهل

.. ونعود إلى دُرّ الصِّبا، مهد الفتوة (أيام تجرير.. ذيولهُ، بدارٍ آثلة عوده):

عمرك الله... هل رأيت بدوراً طلعت في براقع وعقود؟

راميات بأسهم ريشها الهد ب، تشق القلوب قبل الجلود!

.. وكأني بك تجيبه بـ "لا.." إن لم يخامرك هوى مُهاة أو جُؤذرٍ:

مَن الجآذر؟.. في زي الأعاريب حمر الحُلى، والمطايا.. والجلابيب

.. وإن سألت سؤال المتجاهل.. أو شككت[2]:

---

[1] قال صنوه (المعري):

منك الصدود، ومني بالصدود رضى من ذا عليّ بهذا.. في هواك قضى؟!

[2] ليس الشكّ المزعزع لليقين، لكنه المقرّب - بسلكه - للحقيقة، قال "ديكارت" -ت١٦٥٠م-: (الشك يؤدي لليقين)

إن كنت تسأل شكّاً في معارفها   فمن بلاك بتسهيدٍ وتعذيب

أكيد سوف تُجيب.."هُنّ"[1] ا، اللواتي - كما يصفهن -:[2]

ما أوجه الحَضرَ المستحسنات به   كأوجه البدويّات الرّعابيب[3]

ثم هذا التنهد والتأوه والآه.. على "شامية" - خلى بها-..:

أواه بديل من قولتي وآها   لمن نأت والبديل ذكراها

أواه لمن لا أرى محاسنها   وأصل واهاً وأواه مرآها

.."شامية" طالما خلوت بها   تُبصرُ في ناظريّ مُحيّاها

ثم هو لا يتذكر الطلول حُبّاً "بالطلول" .. إنما بمن كان بها:

- وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا - [4]

.../

---

[1] بنات حواء،.. فهل على (ابن الفارض) من عتب حين يستعجب:

هل سمعتم أو رأيتم أسداً   صاده لحظ مُهاة.. أو ظُبي!

..ويسمو على الشاهد، قوله صلى الله عليه وسلم:

(ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء) - الحديث

[2] - ..قال (د. موسى العويس) معلقاً:

(أكبر المتنبي الجمال المعنوي للمرأة، المتمثل في وقارها، وعفتها، وحشمتها، ورزانتها، ورصانتها، وصفاء نفسها، ونقاء وجدانها وامتلاكها ناصية البيان. ورأى أنّ هذه السجايا لا يمكن أن تتوافر إلا عند المرأة الأعرابية التي حافظت على هويتها من أوشاب الحضارة، ولم يغرها السراب أو تنخدع به) - الجزيرة/ عدد ١٠٥٦٥ -

[3] جمع رعبوبة وهي: الطويلة الممتلئة.

[4] كما يقول (مجنون ليلى).

إن الذين أقمت وارتحلوا   أيامهم لديارهم دول
الحسن يرحل كلما رحلوا   معهم.. وينزل حيثما نزلوا

وهذا ما جعل للطلول بالقلب "طلول" ..للأحبة، ومغنىً. لأيام كانوا بها - إذا.. ما:

بدت قمراً ومالت خوط بان   وفاحت عنبراً ورنت غزالا[1]-

لـ.. أن من قلبه مُعلّق بآمال وطموح شغله عن القرار.. وأبعد به الدار.. وقلل منه المزار، لا يُنتظر منه غير الحديث عن همّته وقصده، أو البحث عن الوسيلة المُبلّغة، والطريقة الناجعة..لنيلهِ!..

..أمّا وشاعرنا كما نعرف عنه.. من قوله:

مما أضرّ بأهل العشق أنهمُ   هووا.. وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم   في إثر كل قبيح وجهه حسنُ

فأبعد من أن يأسره طرفٌ كحيل أو خدٌّ أسيل..،

فما أعجزنا أن نُعرّف بهذا الشاعر حين نذكر بدائعه بهذه "الوجهة"!

..مثلاً كقوله - من شكوى مافعل به الهوى-:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ   لولا مخاطبتي إياك لم ترني[2]

---

[1] قال - من قبله.. - أبو نواس (بـ.. أربع استعارات):

يبكي، فيذري الدرّ من نرجس   ويلطم الخد الورد بالعناب

[2] .. وهي مُبالغة - كعادة الشعراء.. - وقيل:

رأى رجلٌ بشار بن بُردٌ - فإذا هو ضخم الجُثة.. - فقال له أين قولك:

-...

أو القول .. في عتابٍ جميل:

حِلْتِ دون المزار،.. فاليوم لو زرتِ   لحال النحولُ دون العناق

وأحسن بـ (إجمال).. عن أهل ودّه:

ولو زلتم.. ولم أبككم   بكيت على حبّي الزائلِ

أو.. سماحة العاشق - لدنه -:

وقنعت باللقيا، وأول نظرة   (إن القليل من الحبيب كثير[1])

.. ونصحه.. للهائم..

تذلل لها.. واخضع على قرب النّوى   فما عاشقٌ من لا يذل.. ويخضعُ

و - أخيراً - تعريفه[2].. لـ "الحب" :

الحب ما منع الكلام الألسنا   وألذُّ شكوى عاشق ما أعلنا

و.. رغم هذا الإبداع - وغيره كثير[3] -، إلا أن (الغزل) من الفنون التي

...-

إن في بُردي جسماً.. ناحلاً   لو توكّأتِ عليه لانهدم

.. وأنت كالثور؟

فقال له.. ألم يقل الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾.

..على أن مبالغة بشار - هذه -.. لا تصل إلى مدى عبير شاعرنا.. بـ

وشكيّتي فقد السقام لأنه   قد كان.. لما كان لي أعضاءُ

(1) وكم ذهب - هذا العجز - مثلاً..!

(2) .. "مجازاً" - وقد كرّرت هذا لمسوغٍ.. لذلك -

(3) كما قال.. في لقاء.. بعد "ضنى البين"

وتوقّدت أنفاسنا حتى لقد   أشفقت أن تحترق العواذل بيننا

لم يلتفت لها الشاعر، وإنما تكلّفها "تماشياً مع سجية الشعراء"-ربما..[1]- غزلٌ ظهر به جهد العقل والصنيع الفـني.. أكثر مـن أثـر العاطفـة ورقّـة الشعور، كيف لا وهو القائل:

أطعت الغوانـي قبـل مطمـح نـاظري إلى منظـر يصغـرن عنـه ويعظـم

وكأن أبا الطيب اصطنع الغزل[2]، أو فرضه على نظمه – ألم يقل وكأنه يعني.. ذاته/ **وقد يتزيّا الهوى غير أهله..** –

---

[1] وإذا ما أردنا أن نُجازف – في الحُكم على غزله – .. استعرنا قـول الشـاعرة عائشـة التيمورية (ت١٩٠٢): (أنه لم يكن "الغزل" في شعره إلا من قبيل "تمرين اللسان"!)

و..يعلّق د/ غازي القصيبي: (المرأة في أكثر قصائد الغزل ليست امرأة، إنمـا هـي "رمـز".. لكن يُبنى عليها – فقـط – لأنهـا كـائن جميـل يأسـر، وهـو – هـذا النمـط – تقليـد قديم!)

..على أننا نستثني من تعليله – الواقعي – أهل التجـارب.. في أسـر الهـوى، كمسـلم بـن الوليد –صريع الغواني – القائل.. بنفس تنهّد العاشق:

سـقتني بعينهـا الهـوى،.. وسـقيتها فـدبّ دبيـب الـراح.. في كـل مُفصـلِ

[2] قال تركي السديري – رئيس تحرير صحيفة (الرياض) – عن صنعة الغزل لدى المتنبي:

".. لم يبحث متذوقوا الشعر في قصائد المتنـبي عـن إبداعـات الغـزل الـتي تـأتي عنـده متكلّفة وكأنها بعضٌ من كلّ ..لا بد من تواجده حتى لا يكـون ذلـك الكـل ناقصـاً عند من يتابعه..".

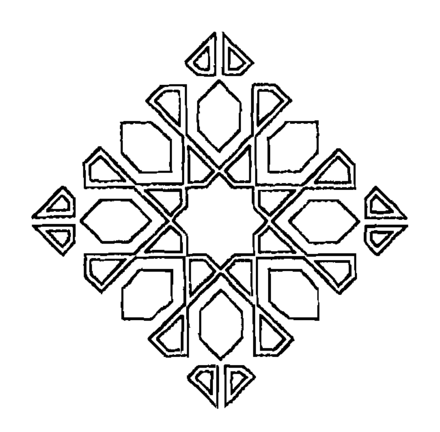
الأبسط في إيضاح ذلك قول أنيس المقدسي – مقدّماً لغزل البحتري هو:

(نوع من الفن الكلامي يصدّرون به قصائدهم تمهيداً لما يقصدون).

فالغزل يحتاج إلى فن عاطفي صادق[1]. أمـا الأثـر الغنـائي الخـالص عنـد الشاعر فهو قليل.

... والذي يظهر أن قلّة هذا الأثر - الغنائي - أتت من قلّة توجّد الهوى .. بداخله[2] - الذي لم يُشغل به نفسه -، ألم يقل:

لا يعرف الشـوق إلا مـن يكـابده ولا الصبابة إلا مـن يُعانيهـا[3]..؟!



---

[1] .. والذي يأتي - أو يتولّد - من تجربة..، أو نتاجُ تجربة

- ولا كل من عانى الهوى... بُمتيمِ -

[2] لكن - الحق/ أنه مهما تنصّل الإنسان من هذا الداء (الغزل)، إلا أنه مُتغلغل في النفس الشجية، أو الشاعرة مثله.

[3] قال الشاب الظريف:

فعسى يعينـك مـن شـكوت لـه الهـوى في حمله، فـ (العاشـقون رفـاق)

"الذاتيـة": [1]

شاعرنا قد يكون من أكثر الشعراء حديثاً عن نفسه: متفاخراً..

فليفخـر "الفخـر" إذا غـدوت بـه مُرتديـاً خـيره.. ومنتعلـه

و..

أبدو .. فيسجد من بالسوء يذكرني فـلا أُعاتبـه صفحـاً وإهوانـا

ومتعاظماً:

تغـرّب لا مستعظماً غـير نفسـه ولا قـابلاً إلا لخالقـه حكمـا [2]

أو..:

أمـط عنـك تشبيهي بمـا وكأنمـا فمـا أحـدٌ فوقـي ولا أحـد مثلـي

ومعجباً:

إن أكـن معجبـاً فعجـب عجيـب لم يجـد فـوق نفسـه مـن مزيـد [3]

---

[1] قال د. غازي القصيبي – سيرة شعرية، ص٩٦ –:

شعر المتنبي – في نهاية المطاف – ينطوي على عشق واحد.. هو عشق الذات، وهذا العشق هو الذي أعطانا شعراً كهذا:

أرى كلنـا يبغـي الحيـاة لنفسـه حريصـاً عليهـا مُستهاماً بهـا صبـا)

[2] –.. كما قال عنترة:

لا تسـقني مـاء الحيـاة بذلّـةٍ بـل فاسـقني بـالعزّ كـأس الحنظـلِ –

[3] ..كقول أحدهم – من.. عهدنا –:

ومنّـا الوزيـرُ، ومنّـا المشـير ومنّـا الخطـيرُ.. ومنّـا "أنـا"!

..ويفرط الدكتور عبد العزيز الدسوقي – كتابه: عالم المتنبي.. الشعري – في العبير عنها: –...

.. لم لا ..؟ و...:

الخيل والليل والبيداء تعرفني	والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وشجاعة:

صحبت في الفلوات الوحش منفرداً	حتى تعجب مني القور والأكم[1]

وإقدام:

لتعلم مصر ومن بالعراق	ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيتُ وأني أبيت	وأني عتوت على من عتا
.. ومن يكُ قلبٌ كقلبي له	يشقّ إلى العزّ قلب التوى

جراءة..:

يحاذرني حتفي.. كأني حتفه	وتنكزني الأفعى. فيقتلها سُمّي

وسموّاً:

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم	ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي	أن الثريا وذان الشيب والهرم

...=

"شخصية هذا الداعية السياسي والمفكر القومي والشاعر العبقري واضحة تزحم هذه القصائد، لقد كان يمدح نفسه ويتغنى أشواق روحه، في بداية معظم هذه القصائد وفي خواتيمها، وأحياناً كانت تشغله ذاته عن شخصية الممدوح، ولهذا عندما كان يرتبط بأمير أو وزير كان يقصر شعره عليه، لأنه كان يحقق (ذاته) من خلال هذا الأمير أو الوزير، وقد ظل مرتبطاً بسيف الدولة تسعة أعوام كاملة أنجب خلالها أجمل شعره".

[1] القور: جمع قارة/ الأرض ذات الحجارة السوداء. الأكم: جمع أكمة (الجبل الصغير).

وثقةً - ليس لها مثيل - :

أسري في ظلام الليل وحدي كأنّي منه في قمرٍ مُنير

ثُمّ.. كل هذا قليل إذا عدنا إلى قصائد:

رثاء جدته/ "**ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذما**"

وقصيدة: "**إذا غامرت في شرف مروم**"

وعتابه (الشهير) لسيف الدولة: "**وآحرّ قلباه ممن قلبه شبمُ !**"

أو الحمى/ "**ملومكما يجلُّ عن الملام**"[1]

وفي الردّ على من زعموا موته: "**بم التعلل.. لا أهل ولا وطن؟**"

وأخيراً - وهي أولاً - قصيدة عهد الصبا:

لا بقومي شُرفتُ بل شُرّفوا بي وبنفسي فخرتُ لا بجدودي

وبهم فخر كل من نطق الضا د، وعوذ الجاني وغوث الطريدِ

وهل بعد هذا من ذاتيةٍ يبقى للحديث عنها..؟ لا أظن:

أن صخرة الوادي إذا ما زُوحمت وإذا نطقت فإنني الجوزاء

فـ..:

ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريّا وذان الشيب والهرم

ولا يفوتني التنويه بقوله "أنا الثريا"، كيف لا..! وهو القائل:

وإني لنجم تهتدي صحبتي به ..إذا حال من دون النجوم سحابُ[2]

---

[1] وفيها تعرّي واضح .. لهذا "الجواد" الذي أضرّ به (طول الجمام) أو الراحة.

[2] ليذكرنا.. بقول ندّه - في عصره - أبو فراس الحمداني:

-...

هذا التعالي[1] الذي - ربما - سبب له الحسد ممن حوله، حتى أن سيف الدولة كره من شاعره هذا التعاظم الذي بلغ منتهاه ..فجفاه..[2]

حتى حمل الشاعر أن ينظم:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام، وأنت الخصم والحكم!

وانتهاءً بقوله - كأنه استطال جفاء الأمير - :

-...

سيذكرني قومي إذا جدّ جدهم وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

- ومن معناه قول (ابن المعتز): لولا ظلمة الخطأ، لم يبن ضوء الصواب -

[1] .. إذ ليس بجديد - هذا التعالي - من الشاعر، ألم يقل في كنف أبي العشائر يمدحه:

لم تزل تسمع المديح ولكن صهيل الجياد غير النهاق

وكأنه يُشبّه الآخرين من الشعراء بالحمير - أعزكم الله -

..وقد قال - من قبل - دعبل الخزاعي

إني لأفتح عيني - حين أفتحها - على كثيرٍ، ولكن لا أرى أحدا !

وصدق عليه قول أبي تمام:

يُسيء بالإحسان ظناً.. لا كمن يأتيك، وهو بشعره مفتونُ

...ولا ننسى التوجيه الكريم قال تعالى ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾سورة النجم، آية٣٢.

[2] فقال - في ذا الجفاء - :

أرى ذاك الودّ صار ازورارا وأصبح طويل السلام اختصارا

تركتني اليوم في خجلة أموت مراراً وأحيا مرارا

- ولو .. استشهد (حينها) بغير شعره لقال:

وكنت أذم إليك الزمان فأصبحت فيك أذم الزمانا

وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا[1] فما لجرح إذا أرضاكم ألم[2]

المراد..

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى تساو المُحايا عنده والمقاتل

ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم[3] وليس لنا إلا السيوف وسائل

المجد والعلى..، إذاً أيتها النفس:

إن لم أذرك على الأرماح سائلة فلا دُعيت ابن المجد والكرم

و.. اعتزازاً: [4]

فموتي في الوغى عيشٌ لأني رأيت العيش في إرب النفوس

..رعب:

مَن لو رآني ماءً مات من ظمأ ولو عُرضت له في النوم لم ينم

---

[1] قاصداً أبا فراس – بقوله حاسدنا – ورضي عنه سيف الدولة.

السبب: ..وكما قيل/ قد يكون بين المتعاصرين منعه من الانصاف، وهذا مما يعتذر لأبي فراس، الذي لا يُنكر على المتنبي قصب السبق في رِيادة القريض، إذ لا يمكن أن يغمط قدره.. مثله!!

[2] – وقال ابن الرومي:

لعل قلوباً قد أطلتم غليلها ستظفر منكم بالشفاء فتثلج

[3] أو.. إلا رؤوسكم.

[4] ولذلك تجده.. يُرسل .. كالناصح:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوس الرماح أذهبُ للغيظ وأشفى لغل صدر الحقود

صبر وتجلّد:

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها   كأن بنى الاسكندر السدّ من عزمي

فخر:

ما نال أهل الجاهلية كلهم   شعري، ولا سمعت بسحري بابل

كبرياء:

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني   فلا أُعاتبه صفحاً وإهوانا

عزم - بلا نظير - :

أُطاعن خيلاً من فوارسها الدهر   وحيداً، وما قولي كذا ومعي الصبر

غرور وصل مُنتهاه:

أنا الذي بين الإله به   الأقدار، والمرء حيثما جعله

وتظهر الجهل بي وأعرفه   والدرّ درّ برغم من جهله

وثقة.. ليس كمثلها شيء:

يُسابق سيفي منايا العباد   إليهم كأنهما في رهان

.. وننتهي عند هذه النفس العظيمة - لدى صاحبها - إلى مجلس الأدباء /و/ حُساده[1] ..في بلاط سيف الدولة، حيث تفجّرت: "بميميته" نفس الكبرياء عنده[2] بقوله:

---

[1] - .. أو ما خُيِّل إليه.. من غرور الذات: أنهم كذلك!! -

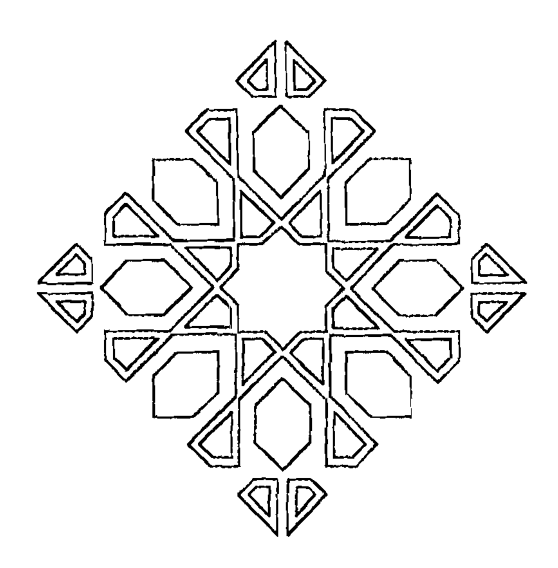
[2] وكأنه يُوعز (على لسان غيره).. إلى من يعاتبه - على هذا الإفراط - بـ:

ولا أرضَ الجهل خِدناً وصاحباً   ولكنني أقبله حين أُحرج ...

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

..الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم



...-

- انظر .. مطلع ص٩٢ -

ترانيم[1].. على مقام "المتنبي"

- بلا.. تعليق!! -:

"أنا الطائر المحكي والآخر الصدى"

* * *

"أنا صخرة الوادي إذا ما زُوحمت وإذا نطقت فإنني الجوزاء"

* * *

"أنا تُرب[2] الندى، وربُّ القوافي" وسِمام العِدى، وغيظ الحسود"

* * *

"لا بقومي شرفت بل شرفوا بي "وبنفسي فخرت لا بجدودي"

* * *

"إن أكن معجب فعجب عجيب "لم يجد فوق نفسه من مزيد"

* * *

"لقد تصبّرت حتى لات مصطبر "فالان أقحم حتى لات مقتحم"

* * *

".. ولو برز الزمان إليّ شخصاً لخضّب شعر مفرقه حُسامي"

* * *

"أذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا"

* * *

"أضمتني الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطّرت عليّ مصائبا"

* * *

"أسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمر منير"

* * *

---

(1) .. - ذاتيه -

(2) تُرب الإنسان: من ولد معه - أو توأمه -

"تغـرّب لا مسـتعظماً غـير نفسـه ولا قـابلاً إلا لخالقـه حكمـا"

* * *

"أمـط عنـك تشبيهي بمـا.. وكأنمـا فمـا أحـد فوقـي..، ولا أحـد مثلـي"

* * *

"وإنـي لمـن قـومٍ كـأن نفوسـهم بها أنفٌ[1] أن تسكن اللحم والعظمـا"

* * *

"وإذا أتتـك مذمـتي مـن نـاقص فهـي الشـهادة بـأني كـامل"

* * *

"كـأن بنيهـم عـالمون بأنّنـي جلـوبٌ إليهـم مـن معادنـه اليُتمـا"

* * *

"كـأني دحـوت الأرض مـن خَـبَرَتي كأن بنى الاسكندر السدّ من عزمي"

* * *

"يُحـاذرني حتفـي.. كـأني حتفـه وتنكزنـي الأفعى.. فيقتلها سُـمّي"

* * *

"ضـاق بي ذرعـاً مـن أن أضيـق بـه زمـاني واسـتكرمتني الكـرام"

* * *

"ومـن يـكُ قلـبٌ.. كقلـبي لـه يشـقُّ إلـى العـزّ قلـب التـوى"

* * *

"وقلبـي مـن الملـوك وإن يُـرى لسـاني مـن الشـعراء"

* * *

" أعطى الزمان فما قبلت عطـاءه وأراد لي..، فـأردت أن أتخـيّرا "

* * * * *

[1] الأنفة أي: الاستكبار والاستنكاف.

"الهجاء"

- لسانك لا تذكر به عـورة امريءٍ فكلّـك عورات، وللنـاس أعـينُ -

لن آتي كثيراً على "الهجاء"[١]..، وليس ذلك تغافلاً بل قصداً[٢].

لأنني أحترز من الهجاء -عموماً- لذمّه من لدن المشرّع سبحانه وتعالى،.. هذا أولاً.[٣]

كما قال صلى الله عليه وسلم - لمن سأله: وهل نحن مؤاخذون على ما نقول - بـ: ثكلتك أمك، وهل يكبّ الناس على وجوههم في النار إلا من حصاد ألسنتهم، والحديث الآخر:

(ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء).[٤]

---

[١] ..أو على حد وصف أحدهم بـ: أنه (التصوير السخري الحآد).

وهو/ التجريح الشخصي، أو: قضاء العاجز، وسلاح المُفسد - كما قيل

[٢] - قال زهير بن أبي سلمى:

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدمِ-

[٣] .. فهل يُعقل مثلاً: أن نأخذ منه - أو من تجربته - هذا المبنى.. بهذا المعنى:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روّى رمحه غير ظالم

أو قوله:

فلم أر وُدّهم إلا خداعا ولم أرَ دينهم إلا نفاقا

لكن الأحسن من هذا التجريح، قول المعري:

جربت دهري وأهليه، فلم تترك لي التجارب في ودّ امرئ غرضا

[٤] ..قال صلى الله عليه وسلم (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)

-...

ثانياً/ لأنه يعتمد أو يُبني صيغه على التجريح الشخصي[1] الذي قد لا يكون للمرء - المذموم - حولاً ولا طولاً بوصمها.. كالعرج، أو العمش..إلخ.[2]

...-
- وقد قال يحيى بن معاذ رحمه الله:
ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال لتكون من المحسنين، إحداها: إن لم تنفعه، فلا تضره، والثانية: إن لم تسره فلا تغمه، والثالثة: إن لم تمدحه فلا تذمه.
..وكان الفضيل بن عياض، إذا اعتدى عليه شخص بالشتم والسباب رفع كفه مبتهلاً وقال: "اللهم إن كان كاذباً فيما رماني به فاغفر له، وإن كان صادقاً فاغفر لي". هذا السلوك الرائع الواجب قوله.

(1) ألا تستقبح منه ذائقة القارئ حين يقول عن كافور وحاشيته:

إني نزلت بكذابين ضيفهم ... عن القرى وعن الترحال مصدودُ

ثم يوجه - لمُضيفه - هذه النبزة.

جوعان يأكل من زادي ويمسكني ... لكي يُقال عظيم القدر مقصود

... وهذا التهكم الواضح - و.. الفاضح مقصده - :

ولا توهمت أن الناس قد فُقدوا ... وأنّ مثل أبي البيضاء موجود

(2) قال شاعرنا في أحدهم - وقد كانت إحدى عينيه مفقوءة -:

يا بن "كروّس" يا نصفُ أعمى ... .. وإن تفخر فيا نصف بصير!

..أما خُلق الطّباع - وهي غالباً - مُكتسبة -.. قال أحدهم مُداعباً:

و "ثقيلٌ" ما بَرحنا ... نتمنى البُعد عنه

غاب عنا.. ففرحنا ... جاءنا أثقل منه

..وغير هذا.. الكثير!
ولا يخفى على المطلّع على ديوان شاعرنا، ما سكبه - بزعمه - على المولى الإخشيدي ...-

ثالثاً: لأن مُعظمه مُبالغات وتكبير لصغير.. خفي، أو لعداوات[1].. ليس وراءها تأصيل.. يُجيز الخوض فيها.[2]

على أن لكل قاعدة استثناء، فلن أُضمر ما يودّ المداد.. من نفثٍ لجميل.. عتابه للأمّة.. - بعد.. ويلات[3] .. لقيها-

بكـــل أرض وطئتهـــا أمـــمٌ ... تُرعـــى بعبـــد كأنهـــا غنـــم[4]

..، قال - غيره[5] - بنفس النفسية التي لدى الشاعر.. أو قياساً/

...=

"كافور"، لكن يذبّ عنه، ويجلّي عن زيفه، قول د. غازي القصيبي (ما تقدم هامش٢ ص٤١):

..لكن هو الشعر يفعل ذلك في الشاعر أو ما يستدرجه إليه هواه، وما تمليه عليه أمانيه!

[1].. وكأن المرء يحتاط.. على لسان الشاعر نفسه:

وإذا أتتـــك مذمـــتي مـــن نـــاقصٍ ... فهـــي الشـــهادة لي بـــأني كـــاملُ

[2]وكان الأديب (محمود شاكر - رحمه الله -) قد أجاز للشاعر نقد -أو هجاء- مصر ..وأهلها في عهد كافور، وأطّر لذلك "الجواز" في استرسال -انظر في/ سِفره ص٣٥٠- واستشهد بذلك في أبيات للقاضي التنوخي الكبير.. مطلعها:

تركنـــا بـــأرض مصـــر كـــل فـــدمٍ ... لـــه بـــاع يقصـــر عـــن ذراعٍ

نفـــوس لا تليـــق بهـــا المعـــالي ... وأخـــلاق تضيـــق عـــن المســـاعـــي

..إلا أني أعتبر ذلك.. مما تمليه العاطفة التي لديه للشاعر.. -وحسب هذا الاعتذار .. من حُجّة -

[3] ألم يعتب (شاعر النيل) على أُمّةُ - بلده - في ساعة ألم.. ونضوب الأحلام، صدّر منها..

فمـــا أنـــتِ يـــا مصـــر دار الأريـــب ... ولا أنـــت بـــالبلد الطيـــب

[4] قال عمر أبو ريشة رحمه الله - موازياً (من البيت) بين تلك الحال وحال اليوم -:

أُمّـــتي.. كـــم صنـــمٍ مجّدتـــهِ ... لم يكـــن يحمـــل طُهـــر الصّنـــم

ممـــا يُزهدنـــي في أرضِ "أندلـــس" تلقيـب معتضـد[1] فيهـا، ومعتمــدِ..

.. ألقـاب مملكـــة في غـــير موضعهـــا كالهر يحكي انتفاخاً صولـة الأسـدِ[2]



...-

[٥] ابن رشيق القيرواني

وتعليقاً على مثل هذا - السلح -، قال ابن سعيد (ت٦٨٥هـ):

(كان ولاة بني أمية في نهاية من الانقياد للحق لهم أو عليهم، وبذلك انضبـط لهـم أمـر الجزيـرة، ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تهتك أمرهم.. إلى أن وقعت الفتنة.. فظهـرت ملـوك الطوائف واستبدوا. حتى..أصبح توثبهم على السلطة مصدر إلهام الشعراء!!).

[١] ..أي: المعتضد/ عباد بن محمد بن عباد (٤٠٧-٤٦١هـ).

[٢] وقد ردّ ابن اللبّانة على أبيات ابن رشيق القيرواني هذه، بأنه "كلب عقور نبح" بهذا. ..مدافعاً عن آل عباد، ضمن كتاب ألّفه فيهم سماه "الاعتماد في أخبار بني عباد".

- (لافتة...):

..تُرى أكان الإسـلام "غريبـاً" في الأندلـس(*)، و لم يُمنـح فيـه إلا "جـواز عبـور مؤقـت" ليرحل فيه إلى دويلات ملوك الطوائف، أو مــا تسـميهم المصـادر الأسـبانية اسـتخفافاً بهم "بمليك" (Reyezuelo) وهو مصغر تحقيري لكلمة (ملك) (Rey).

- وقد ورد في كتاب (نفح الطيب) للمقري:

لم يبـــقَ للجـــورِ في أيـــامهم أثـــر إلا الـذي بعيـون الغيـد مـن حـور -

(*) قال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي – رائياً ضياعها من المسلمين .. ، في مطلع وعظيٍّ حكيم - :

لكـــل شـــيء إذا مـــا تم نقصـــان فـــلا يُغــرّ بطيــب العيــش إنســـان

..هــي الأمــور كمـــا شــاهدتها دولٌ مــن ســرّه زمــن..، ســاءته أزمـــان

"الحُسّاد"[1]

(وعـداوة "الشـعراء" بئـس المقتنـى)[2]

.. و لم لا تكون - عداوة الشعراء - بئس المقتنى..

فـإذا مـرّ بـأذني حاسـد كـان ممـن كـان حيـاً فهلـك[3]

ولعل من أسباب قوله - في رحاب سيف الدولة -:

سـيعلم الجمـع ممـن ضـمّ مجلسـنا بـأنني خـير مـن تسـعى بـه قـدمُ

.. تكاد خلف تلك الذاتية التي تطرقنا لها، لا يكون سببها - أو باعثها-

---

(1) ..للإنصاف: نقول (المنافسون)!، فالحسد له داعٍ - كقول الشاعر:

حسـدوا الفتـى، إذ لم ينـالوا سـعيه فـالقوم أعـداء لـه وخصـوم -

..لكنه غير الذي نبسط عنه (هنا).

لأن الحسد - الذي قيل فيه: العجز عن المنافسة - هو: اغتمام الحاسد وقت سرور المحسود.

(2) وصدر البيت: **ومكايد السفهاء واقعة بهم.**

(3) يُذكر أن جرير حين تعرّض له الراعي النميري (*) - بالقصة المعروفة - سهر كل الليل.. في تجميع لمعنى يهجوه به..، فلما أن توصّل إلى:

فغـض الطـرف إنـك مـن نمـير فـلا كعبـاً بلغـت.. ولا كلابـا

فزّ قائلاً.. /قتلته ورب الكعبة - ومُدركٌ من المعنى المراد من وراء هذا.

وهذا ما عناه المتنبي بمقصد جرير.. حين أنشأ - البيت الشاهد -

- (*) (أبا جندل).. وذلك بقوله/ خزانة الأدب (١/٣٤):

يـا صـاحبي دنـا الأصيـل.. فسـيرا غلـب الفـرزدق في الهجـاء جريـرا -

"الغرور وحده"، بل حُسّاد هذا الشاعر[1].. فكأنه يراهم حتى وهم في مخابئهم...، حتى ليقول:

إنـي، وإن لمـت حاسـدي فمـا ... أنكـر أنـي عقوبـة لهـم!

و..لقد عانى المتنبي من حساده الكثير:

أرى المتشـاعرين غـرّوا بذمـي[2] ... ومـن ذا يحمـد الـداء العضـالا

..كما عانى من طوارق الأحداث الكثير:[3]

أظمتـني الدنيـا فلمـا جئتهـا ... مُستسقياً.. مطّرت علـيّ مصائبـا

وكما ذاق من مصائبه البلاوي:

أذاقـني زمـني بلـوى شـرقت بهـا ... لو ذاقها لبكـى مـا عـاش وانتحبا[4]

---

[1].. قال لسيف الدولة.. مُجاهراً:

أزِل حسـد الحسـاد عنّـي.. بكبتهـم ... فـأنت الـذي صـيّرتُهم لي حُسّـداً

[2] كـ.. "الحسين بن الحجاج البغدادي" الذي قال فيه:

يـا ديمـة الصفـع هـبّي ... علـى قفـا المتنـبي

ويـا قفـاه تـدلّ ... واجلـس قليـلاً بجنـبي

..إلخ هذا النظم (الوضيع)

[3] .. ولا نستغرب منه.. حين يُخاطب "الحمى" التي رابته في مصر.. بقوله:

أَبنـت الدّهـر عنـدي كـلّ (بنـتٍ) ... فكيـف وصلـت أنـتِ مـن الزحـام

.. أي/ إن المصائب أحاطتني من كل جانب فما المنفذ الذي من خلاله.. وصلتِ!!

[4] مما جعله يبوح – تألماً – عمّا يُخالجه:

لم يـترك الدهـر مـن قلـبي ولا كبـدي ... شـيئاً تتيمـه عـينٌ ولا جيـد

يـا سـاقيي أخمـرٌ في كؤوسـكما؟ ... أم في كؤوسـكما هـمّ وتسـهيد!

-...

فقد ذاق من خداع ونفاق:

إذا ما الناس جرّبهم لبيب فإني قد أكلتهم وذاقا[١]

فلم أر ودّهم إلا خِداعا ولم أرَ دينهم إلا نفاقا

إذاً: لنُعرّف هذا "المحسود":

"أنا" تُرب الندى، وربّ القوافي وسِمام العِدى، وغيظُ الحسود

أنا في أُمّةٍ تداركها اللـ ـه، غريب كصالحٍ في ثمود

أو هكذا وُلد.. في:

(دهرٌ).. ناسه ناسٌ صِغارٌ وإن كانت لهم جثث عظام

..مرّ بإحدى تنقلاته - الكُثر - بأرضٍ تُسمّى (قنسرين) ثم قال - حين سمع زئير أسد -:

أجارك يا أُسد الفراديس مُكرم؟ فتسكن نفسي،..أم مهان فمُسلم؟[٢]

=...

أصخرة أنا[*]؟! مالي لا تحركني هذي المدام،ولا هذي الأغاريدا!

.. ماذا لقيت من الدنيا.. وأعجبه أني بما أنا شاكٍ منه محسود

أمسيت أروح مثر خازناً ويداً .. أنا الغني.. وأموالي "المواعيد"

[*] من معنى طرقه أحمد شوقي بـ:

- سَلي مَن راع[**] غِيدكِ بعدوهن - أبين فؤاده والصخرِ.. فرقُ؟

[**] أي: أدخل الروع إليه.

[١] .. وهذه مبالغات مُستقبحة.. في ذائقة القارئ "المسلم".

[٢] .. ولا يُشابهه إلا قول (الأحيمر السعدي) - في عهدٍ ضاعت به إنسانية الإنسان -:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان .. فكدت أطير

قال عبد الله البردوني - موضّحاً:

=...

ورائـــي وقُدّامـــي عُـــداة كثـــيرة أُحـاذر مـن لـــص ومنـــك.. ومنهـــم

..، كما نفّس عن مكنون ما.. يتجرّعه:

والهـــمُّ يخـــترم الجســـيم مخافـــة ويمـــسّ ناصيـــة الصبـــي فيهـــرم
لا يخـــد عنّـــك مــــن عـــدوّ دمعـــه وارحـــم شبابك مـــن عـــدوّ، تُرحـــم

ثم يفيض من غيظ ما يجد:

لا يسلم الشـرف الرفيـع مـن الأذى حتى يُـراق علـــى جوانبـه الــدم[1]
يـؤذي القليـل[2] مـن اللئـام، بطبعـه مـــن لا يقـــلّ كمـــا يقـــل ويلـــؤم
.. ومن البليـــة عـذل مـن لا يرعـوي عن جهله،[3] وخطاب من لا يفهم !

.. فلا يدع مناسبة تخمره بهمّ إلا وأجلى عن مدى صبرهِ وقوّة عزيمتـهِ[4] -كي تتولّد داخله.. فتُجاري حوادث عمـره، أو تغلبهـا -[5]، علـى أن أكثر ما يُعرّفنا بذاتيته "رثاؤه جدّته":

...-

قـــالوا هـــم البشـــر الأرقـــى ومـــا أكلـــوا شـــيئاً كمـــا أكلـــوا الإنســـان أو شـــربوا

[1] قال أمير الشعراء - من نفس هذه الروح الجبارة -:

إن البطولـــة أن تمـــوت مـــن الظمـــأ ليـــس البطولـــة أن تعُـــبَّ المـــاءَ

- وانظر لقول عنترة هامش (٢) ص٧٩ -

[2] القليل: أي الخسيس.

[3] وفي رواية / عن غيّه.

[4] ..كقوله: **أطاعـــن خيـــلاً مـن فوارسهـا الدهـر**

[5] .. واقرأ إن شئت قصيدة: **أفاضل الناس أغراض لدى الزمن**

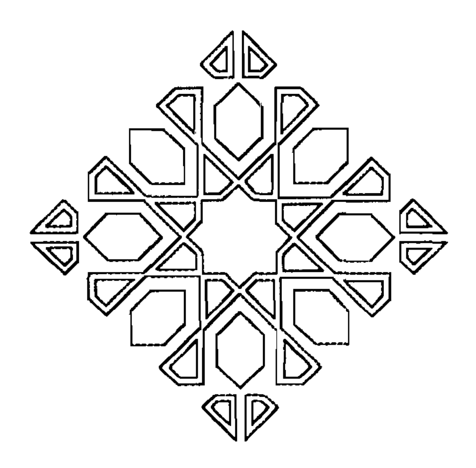
لئن لذّ يوم الشامتين بموتها فلقد ولدت مني لأنفسهم رغما

ويختم حديثه إليهم[1]:

ألا ليست الحاجات إلا رؤوسكم وليس لنا غير السيوف وسائل

ويعود فيعرّي عن إبهام ماردّ استيفاء الحاجات - أو ردع الحساد -:

من اقتضى بسوى الهندي[2] حاجته، أجاب كل سؤال عن هل.. بلم!



(1) .. أي للحساد.

(2) الهندي: السيف.

"الحكمة": [1]

...وتعني -كما شرحها محللوا الكلمة -: (المعرفة وعلم الاطلاع والإدراك)

أرى كُلّنا يبغي الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبا [2]

فحب الجبان النفس أورثه التُّقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

،.. ويعطف.. إلى هذا "التقرير" - المُدرك -:

---

[1] .. يقول الدكتور مرزوق بن تنباك (كان حظ المتنبي - الشاعر - عظيماً من هذا- أي الحكمة - .. حظاً لا يُدفع، فما ترك سلوكاً أو خَلقاً إلا قال فيه مثلاً يُذكر، كلما عنت مناسبة تستثير الإحساس بوصف أعمال الناس وأخلاقهم) ـ اليمامة. عدد: (١٢٣٨)-

[2] قال الراوية "أبو بكر الخوارزمي": أمير شعراء العصر (أبو الطيب المتنبي).. ولو لم يكن له غير هذين البيتين لكفياه، .. وقد تمنى بعض الشعراء - الأقدمين - أن يكون لهم هذان البيتان بشعرهم كله.

ولنا أن نقول بعدها: سامح الله من تتبع سقطاتك (واقعاً على الجروح)، والتي لا توازي جناح بعوضة، من إجمال ما تركت! - انظر ما تقدم ص١٧ مع الهوامش ١/٢/٥-

فما نرى في خبايا مجمل تلك المتابعة - للسقطات -: إلا غمزاً ولمزاً، أو تشفّياً..!!

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما - حين أثنى على شعر الحطيئة -:

ما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب إلا وجدته، وقلما تجد ذلك في شعره، وقال عن النابغة (لكن الضراعة أفسدته، كما أفسدت جرولاً - أي، الحطيئة -)

- أما صاحب كتاب "سرقات المتنبي" فيكفي للرد عليه قول شاعرنا (خزانة الأدب (١/٣٨٣)-:

الشعر جادة، وقد يقع حافرٍ على حافر.

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا من جيئة بها.. وذهوب

تملّكها الآتي تملّك سالبٍ وفارقها الماضي فِراق.. سليب

(أثرت حِكم المتنبي - أو لنقل شعره عموماً - المعرفة العربية والإسلامية والإنسانية إلى درجة عالية، لم يصل إليها أيٌّ شاعر آخر،[1] فالخاصة والعامة يحفظون له.. ما يعينهم على مواجهة الحياة..![2] فإن رأوا مالاً آل إلى آخر بسبب مصيبة حلّت بصاحبه.. تمثّلوا بقوله: "مصائب قوم عند قوم فوائد".

وإذا عرف الإنسان قيمة الكتاب ذكر قوله: "وخير جليس في الزمان

---

[1] قال القاضي /عبد الرحمن البياني: (إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس).

- وقد قيل:

إن الكلام لفي الفؤاد، وإنما جُعِل اللسان على الفؤاد دليلا -

ثم قال الراوي - معقباً - أي والله ينطق ألم يقل:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له.. ما من صداقته بدُّ!

.. ربما لأنها - أي حِكمهُ... كما يقول أنيس المقدسي - (دقيقة المعرفة بحوادث الزمان صائبة النظر في عواطف الإنسان..).

[2] ..كتب الأديب بدر المطيري: (حِكم المتنبي/ حقائق لا شك.. وقد تكون في جانب كثير منها بسيطة.. ومعروفة، لكن "الشاعر الكبير" نفث فيها من روحه وموهبته الخلاّقة..، فكانت كالسحر الذي يقلب حياتنا رأساً على عقب، كمثل فلسفته لحقيقة "الموت":

وما الموت إلا سارق دق شخصه يصول بلا كفٍّ ويسعى بلا رجل

فـ "الموت" كالسارق: يأخذنا على حين غفلة -أو غرّة ولا نراه)- الجزيرة عدد ٩٣١٤-

كتاب" وإذا حز بالإنسان أمر ولم يجد المساعد ذكر قوله: "إذا عظم المطلوب قلّ المُساعد" ..إلخ..[1])

..كان لرصيد المتنبي[2] من اللغة والثقافة[3] والتجربة[4].. والترحال؛ ما جعله يمازج ويزاوج بين بعضها بعضاً، ليخرج لنا بهذا التزاوج - والامتزاج - الأبيات النادرة[5] كدرر من جوف صدف في بحر عميق.[6]

وهذا ما جعله "ينبؤ" باللغة، ويعلو بالشعر..، ويسمو بالحكمة:[7]

---

(1) بتصرف.. د. عبد العزيز الفيصل - الجزيرة عدد ٩٣٣٧.

(2) وأكد تقرير (سهيل عثمان ومنير كنعان) - المحصول الفكري للمتنبي/ص٣٢٥ - بـ: (و..ليست العبرة هنا بكثرة الاطلاع والحفظ، بل بالقدرة على الاستعادة الملائمة للمناسبة، فكم من الناس قرأوا وحفظوا أكثر من شاعرنا، ولكن ذاكرتهم ظلت ضنينة عليهم برصيدها..إلخ).

(3) ..انظر للمزيد عن مدى ثقافته كتاب الفن ومذاهبه ص٣٠٩ وص٣١١ -

إيضاح/ ورد في القاموس - تحت مادة (ث ق ف) في أحد معانيها أنه ليس مجرد اكتساب المهارات اللازمة في الحياة البشرية وحسب!، ولكن الحذق فيها أيضاً.

أي..بمعنى: الأخذ من كل فن بنصيب.

(4) قال "برناردشو":

يكتسب الرجال الحكمة لا بنسبة تجاربهم..، بل بقدرتهم على التجربة.

(5) .. قال د. محمود الربداوي: "المعروف أن خير شاعر نطق بالحكمة هو المتنبي.. ـ مجلة الفيصل عدد (٢٩٩) -

(6) إذ كان يأتي بالحكمة بالبيت وحده، أو الصدر، أو نصفه أو..

(7) مما.. جعل الصاحب بن عباد يؤلف رسالة لفخر الدولة بن بويه، جمع فيها من شعر أبي ...-

لم يُبقِ الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تتيمه عين.. ولا جيد[1]

.. ولكنها - أي حكمه - .. "تكاد تكون حمراء تقطر دماً".[2]

على أن الذائقة - العفيفة - لا تُجيز له.. هذا الحُكم - ..عفواً أقصد النظم-:

والظلم من شيم النفوس[3] فإن تجد ذا عفّة.. فلعلّة[4] لا يظلم[5]

...-

الطيب زهاء ثلاثمائة وسبعين بيتاً تجري مجرى الأمثال قال في مقدمتها: (وهذا الشاعر مع تميزه وبراعته وتبريزه في صناعته، له في الأمثال خصوصاً مذهب يسبق به أمثاله).

ويضيف د. شوقي ضيف قائلاً: لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن المتنبي استطاع مع كل ما رأيناه عنده من ضروب تصنع مختلفة أن يحلق في أسمى أفق الشعر العربي -الفن ومذاهبه ص٣٢٦.

(1) -.. انظر تمام الأبيات، فيما تقدم ص٩٣-٩٤ هامش (٤) -

(2) على وصف الأديب "أنيس المقدسي".. - أُمراء الشعر العباسي ص ٣٥٤-.

.. ولا نعجب أن يجعل "ابن رشيق" من أهم مزاياه (الأمثال.. وذمّ الزمان) - العمدة/ ص١٩٤-، ثم يضيف مكرراً: ومن أكثر من شيء عُرف به.

(3) ..لا ليس من شيم النفوس - أو طبائعها - بل مساوئها.. قال تعالى في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي.. وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا" - الحديث..

وقد حذّر المصطفى صلى الله عليه وسلم من الظلم بقوله: "اتقوا دعوة المظلوم.. فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" ..أو كما ورد.

(4) والعلة قصد بها "الرادع" كالدين .. الذي حرّم الظلم، أو الغنى أو الخوف من السلطان، أو حتى الزهد بما لدى الآخرين..إلخ.

وربما الأحسن للفطرة من تعليله، قول الفلاسفة/ إن النفوس تركت الشهوات البهيمية طبعاً.. لا خوفاً.

(5) .. وقد يكون أخذ "البيت" من حكم زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يذد عن حياضه بسلاحه يُهدّم، ومن لا يظلم الناس يُظلمِ

و.. قال - غيره -

وأحيانا على بكرٍ أخينا ... إذا لم نجد إلا أخانا

...-

قال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾[1] إنما يجب أن لا يوافى ذا "الحلم" لغير من يقيّم..، - حتى لا يظن ذلك ضعفاً[2]:

ولا خير في حلم.. إذا لم تكن له بوادرُ تحمي صفوه أن يكدرا[3] -

ثم هذا التنظير:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام[4]

وسوى هذا العيب دونه أو أدنى..،

وكيف ينتفع بنظره من استوى عنده الليل والنهار:[5]

=...

إذ.. هذه حالهم، وما انتهى إليه تدبير عقولهم.

فلأن عُذر "زهير" -وغيره - لأنه جاهلي، وهذه مقومات الحياة لديهم، .. فما هو عذر شاعرنا - ربما الحالة السياسية.. في عهده!! كما تقدم عنها ص٢١-

(١) سورة آل عمران، آية ١٣٤.

(٢) فـ.. في المثل: (قد يُدفع الشر بمثله، إذا أعياك غيره)

كما قال الشاعر:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان وفي (الشر) نجاة.. حين لا ينجيك إحسانُ

- قال أحمد شوقي (في/ نهج البردة):

والشرُّ إن تلقه بالخير.. ضقت به ذرعاً، وإن تلقاه بالشر ينحسمِ

(٣) النابغة الجعدي - رحمه الله -

(٤) قيل إن "شارل ديغول" - الزعيم الفرنسي - أمر بكتابة هذا "البيت" على البارجة التي تتقدم الجيش.

(٥) ..يضرب المولى جل جلاله.. مثلاً فيمن ضلّ بعد هُدىً أتاه: ﴿ذهب الله بنورهم

=...

ومـا انتفـاع أخـي الدنيـا بنـاظره   إذا استوت عنـده الأنـوار والظلـم

بالطبع لا ينتفع بنظره عند هذه الحالة!،

بل لديه من الحكم الدُّر، نَعْرض بعضها.. ونُعرّض لبعضٍ منها:

- هذه الحكمة البالغة -

وليـس يصـح في الأفهـام شـيء[1]   إذا احتـاج النهـار إلى دليـل

وقوله لسيف الدولة الحمداني:

لعـل عتبـك محمـود عواقبـه

لما..؟!

فربمـا صحّـت الأجسـام بـالعلل

- وهذه الحكمة شطر "بيت"..، -

بل قالها بنصف الشطر:

فالموت أعذر لي والصبر أجمل بي   والبر أوسع.. "والدنيا لمن غلبا"[2]

وتعبيره.. هذا:

إذا أتتك مذمتي من ناقص[3]   فهي الشهادة بأني كامل

...=

وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ - سورة البقرة، آية ١٧ -

[1] قال الإمام علي بن حزم الظاهري رحمه الله - ت٤٥٦- بعده:

وأثبـتُ مـا يكـون الأمـر يومـاً   بـلا شـكٍّ.. إذا صـح الدليـل

[2] استفاد أحمد شوقي.. من (المعنى.. والمبنى) لـ ينظم - حكمته -:

ومـا نيـل المطـالب بـالتمني   ولكـن تُؤخـذ الدنيـا غِلابـا

[3] ..وأثرى هذا المراد "أزاك" بقوله: (إن نقائص العلماء.. هي عزاء التافهين!)

و.. قوله يصف أُمّ سيف الدولة – وهو يرثيها –:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضّلتُ النساء على الرجالِ

.. وما التأنيث لإسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلالِ

ونشره من سناء الحياة.. لمن:

تصفو الحياة لغافل أو جاهل[1] عما مضى منها.. وما يتوقّعُ

ولمن يخالط الحقائق نفسه ويسوّمها طلب المحال.. فتطمعُ

أو كجميل تبدّعه.. هذا:

ومن نكد[2] الدنيا على الحُرّ أن يرى عدوّاً له ما من صداقته[3] بدٌّ[4]

---

[1] قال تشيكوف: "كلما ازدادت ثقافة المرء.. ازداد بؤساً".

و..قال "مشل": (إن الإنسان الذكي أتعسُ حالاً من الذين أقل ذكاء..!).

كما قال شاعرنا:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة بالشقاوة ينعمُ(*)

وقد قال أيضاً:

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعبِ

– (*) كان النجفي يقول:

ويا ليت للجهل (العميم) مُدرِّساً ليُرجع لي جهلي، فأصبح كالطفلِ

بليتُ بعقلٍ جامح، ليَ متعبٍ يفتّش عن وعر، وينأى عن السهل!!

تمنيتُ، سجناً للعقول لألتجي له.. فبسجن العقل حرية الطفلِ–

[2] النكد: قلة الخير.

[3] ..لكن تصحيحاً الواجب أن يقول: ما من مداراته، إذ الصداقة تنشأ عن تبصّر بالخليل، أما المداراة فهي دافع – أو غطاء – لحاجة تقضي بانقضائها، ويسند ذلك ما –...

ونستطيع أن نقول - إذا رغبنا التصنيف - أن هـذا البيت.. من حِكمه الخاصه.[1] ..، كـ:

...-

ورد في الأثر (إنّا لنبشّ في وجوه أقوامٍ، ونلعنهم في قلوبنا).

[4] - من قصيدة في مدح (محمد بن سيار التميمي) - وكأنه ألهم القائل..:

ومن نكد الأيام أن يبلغ المنى — أخو اللؤم فيها، والكريم يخيبُ

[1] لأبي الطيب حكم "خاصة" تحدّرت من نفسيته، ومن تعمّقه بالذات، ومن تجاربٍ ومُحاكاة لمسها فسلسل برويها بديع سبكه، مثلاً - وقد أسلفناها -:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى — عدواً ليس له من صداقته[*] بد

فهي - هذه الحكمة - تلمس جزء من ذاتيته الشامخة، وما أحاجته لهذا النظم.

أيضاً../

ومن البلية عذل من لا يرعوي — عن غيّه ، وخطاب من لا يفهم

أو - وهذه أنكاء للمرارة -

ولا تزال قلة الإنصاف قاطعة — بين الرجال، ولو كانوا ذوي رحم

وهذا "التحذير":

لا يغرّك من عدوّك دمعةُ — وارحم شبابك من عدوٍّ ترحم

وهذا "التنبيه":

إذا رأيت نيوب الليث بارزة — فلا تظن أن الليث يبتسم

- والأجمل.. سابقه:

ذو العقل يشقى بالنعيم بعقله — وأخو الجهالة بالشقاوة ينعمُ -

... ومثله

لولا العقول.. لكان أدنى ضيغم — أقرب إلى شرفٍ من الإنسانِ

- الضيغم/ الأسد -

...-

ومن العداوة ما ينالك نفعه ... ومن الصداقة ما يضر ويؤلم[1]

.. وهذا "التذكير":

وما ماضي الشباب بمُستردٌّ ... ولا يوم يمرّ.. بمُستعادِ

بل.. هل هناك أجملُ إجمال.. من هذه:

ذكر الفتى عمره الثاني، وحاجته ... ما قاته..، وفضول العيش اشغال

..أو هذا المنتهى الذي صدّره.. من ذآق الأمرين:

أعزُّ مكان في الدّنا سرج سابح[2] **... وخير جليس في الزمان كتابُ**[3]

=...

.. وهناك أمثلة يصعب الإتيان على جلّها، لكنها – وهذا القصد – علّمت في شعره (الحكيم بالذات) كما علّم بها عطاء ذا المُتفنّن في أسلوبه، ونتاج قريحته، وسجية ملكته.. إغناءً لـ .. "ديوان العرب".

(1) قال (وليم بلايك): غالباً ما آلمتني صداقتك..، فكن عدوّي باسم الصداقة –

(2) سرج سابح/ يقصد ظهر الجواد. (كناية: عن خوض الحرب)

(3) .. وقد سبقه أبو عمرو "الجاحظ" – في كتابه/ الحيوان- ت٢٥٥هـ – في نثر حكيم عن هذا.. الـ"خير جليس":

(..والكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشيّ ظرفاً، وبستان يحمل في ردن، وروضة تقلب في الزهر، ينطق عن المولى، ويترجم كلام الأحياء، ولا أعلم جاراً أبرّ، ولا خليطاً أنظف، ولا رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، وأمل جناية، ولا أمل إملالاً وإبراماً، ولا أقل خلافاً وإجراماً، ولا أزهر في جدال، ولا أكف عن قتال "من كتاب"...).

وقال (د. علي الطاهر): (الكتاب متعة،.. والحديث عن الكتاب متعتان!)

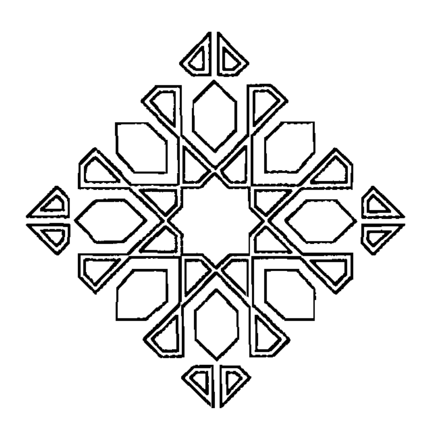
..قال الشاعر:

=...

..حتى ليخلص إلى:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي: المجد للسيف ليس المجدُ للقلمِ

ولعل القارئ يستزيد في الرجوع لديوان الشاعر المليء بين دفّتيه (حِكَمٌ).. لا ينتهي مشربها.



-...

ولي جلساءُ ما أمَلُّ حضورهم — ألبّاءُ مأمونون غيباً ومشهدا

يفيدونني من علمهم علم ما مضى — وعقلاً وتسديداً ورأياً مؤيّدا

فلا رِقبةً أخشى ولا سوء عثرة — ولا أتّقي منهم لساناً ولا يدا

فإن قلتُ: أحياء فلستُ بكاذب — وإنْ قلتُ: أموات فلستُ مفنّدا

- متراجعاً -: واختصاراً نروي اعتراف شوقي.. حين قال:

أنا من بدّل بالكتب الصحابا — فلم أجد صاحباً مثل الكتاب

"أولوياته"...

١ / المجد:

أبو الطيب.. أراق الدموع السواكب على هدف "جلَّ أن يُسمى":

ومن يبغِ ما أبغي من "المجد" و"العُلا" تساوى المحايا عنده والمقاتل

وطوى زمانه لأجله، وتقلّب "في كُلّ بلدةٍ" لبلوغه، وفارق الأحباب ليصل إليه[١]..

حتى أسماه "حقاً" – قد سُلب..، أو أُحيل بينه وبين بلوغه –:

سأطلب حقي بالقنا[٢] ومشايخ كأنهم من طول ما لاثموا مرد

..فكان.. في إنشائياته.. مدلول على البحث عنه، بذاتٍ.. يقصر في عينيها المدى المتطاول ويسهل في العدو إليه.. كل صعب:

ومن الناس من يرضى بميسور عيشه[٣]!!

فانتهى إلى (وهمٍ) كان يضن به المرام، وإلى (سرابٍ)[٤] حَسِبه ماء من

---

[١] ..فالشجاعة : لا تعرف المستحيل! – كما يقول الرئيس الأمريكي (روزفلت) –

[٢] القنا: السيف، ولكنه – كما يقول الواحدي – عنى به نفسه.

[٣] ..وألقى عبد الله بن خميس مفلسفاً الحياة.. في:

ليس الحياة كما توهّم جاهلٌ عيش الكفاف ومستوى محدودا

إن الحياة هي الصراع.. فكن بها أسداً يُصارع أذؤباً وأسودا

[٤] قال أمية بن الأسكر لابنه – ينشدُ القعود عن الجهاد لبِّره.. وقد هرم –:

فإنك والتماس الأجر بعدي كباغي الماء يتبع السرابا

-...

بعد.. قِيعه، وإذا بـ(الحقيقة المُرّة)[1] يقولها لنفسه:

تُريدين إدراك المعالي رخيصة ... ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ولم تكن - إبر النحل - عدا سلاح "فاتك الأسدي" الذي أطفأ شمعةً احترقت[2] من أجل إضاءة[3] "ديوان العرب"[4]، ولم يلقَ - بعد - "المعالي" التي استغرق.. خلفها!

٢ / الغرور:

..وتبع هذا الطلب "المجد والعُلا" الكبرياء والغرور، وهي من أُولى ما يُنعت به شاعرنا، ألم يقل:

أمط عنك تشبيهي بما وكأنما ... فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

و - بثقة لا حدود لها -:

من كان فوق محل الشمس موضعه ... فليس يرفعه شيء ولا يضع

-...

- الإصابة (١/٧٩) لابن حجر العسقلاني -

[1] قال مارك توين: (الحقيقة: مثل النحلة في جوفها عسل وفي ذنبها إبرة).

[2] كما وصف العباس بن الأحنف - نفسه.. - بـ:

صِرت كأني ذُبالةٌ نصبتْ ... تُضيءُ للناس.. وهي تحترق

[3] ..قال أحد الفلاسفة:

هناك طريقان لنشر النور: أن تكون أنت الشمعة، أو المرآة التي تعكس هذا النور.

[4] على وصف أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، للشعر بـ "ديوان العرب".

قال ابن مشرّف:

والشعر ديوان العرب ... وكم أنال من إرب

ثم.. يُغلق طُرق كل من يُريد انتقاصه – من حُسّاده – بجهد أو بدون جهد، وأن مرامهم بعيد المنال – فليوفّروا تعبهم – :

وفي تعب من يحسد الشمس نورها ويُجهد أن يأتي لها بضريب[1]

لأن مكانته "السامية" لا تحتاج إلى دليل – على حدّ تعبيره –..

فليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

.. أدرك أبو الطيب – بنظر النجيب – أن "المجد" المطلوب.. لا يبلغه إلا "**سيّدٌ فطن**". وأنه بدون المشقة لـ "**ساد الناس كلهم**"،.. – لا جاهل..أو: "**كوارثٍ.. جهلت يمناه ما كسبت..**"– فامتطى "الشعر" سُلّماً لبلوغ المجد، بعد أن بلغ إمارة الشعر – الوسيلة – حتى سما به الأمل وحداه ذروته لـ"الإمارة والحكم"[2] التي هي "نفيس" أُمنياته من زمن بعيد،..

– أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ –

حتى لو غيّر بالمنهج، ولو أن يتنازل عن جميع منازعه القومية السابقة، والسياسية الماضية.. لبلوغ (الولاية)[3]، ولو وجد ملجأ، أو مُدّخلاً لأمّ إليه دون مواربة لتحقيق مناه!!

– وحاله مُستشهداً:

إذا كنت ترجو كبار الأمور فاعدد لها همة أكبرا –

---

[1] ضريب: مثيل.

[2] و.. كما قال "الأخطل الصغير": "**طلبت بالشعر.. دون الشعر منزلة**"...إلخ

[3] ..كما قال "ميكافيلي" – وإن كنّا لا نوافقه على هذا –: (الغاية تبرر الوسيلة).

فالأمل من هذا المؤمّل "أن يكون أميراً يُمدح، لا شاعراً يَمدح".

على أننا لنحمد الله "المحمود بكل حال سبحانه"[1] أن هـذا الفحـل[2] - شعراً- لم يبلغ ما عنى أو ينل ما تمنى، ولم يتحقق له ما ترجّى!

..وإلا لما ترك لنا هذه (الحِكم) النازفـة مـن قلـبٍ.. تقلّـب عليـه تقلّـب الأحوال، وتناقلت بين سـواعده شتى المصـاعب والأهـوال، ودار عليـه الزمن.. الذي لا يتغنّى بموال..

وقلّـة نـاصرٍ - جُوزيـت عنّـي بشـرٍّ منـكِ يـا شـرّ الدهــور

ولم تحظَ لغة "الضاد"[3] من نتاجه - على حالـه... مـن تقلّـب أحوالـه - بهذا الميراث الأدبي الخـالد، الـذي - برغـم الهجـوم علـى لغتنـا في عهـد

---

[1] .. منطبقاً علينا - بهذا الشكر لله على أنه لم يبلغ مأمله - قوله:

مصائـب قــوم عنـد قـوم فـوائـد

[2] الفحل/ الشاعر الذي يغلب كـل شـاعر يعارضـه، أو يفضـل عليـه - (هـامش "يتيمـة الدهر" ١/١٤)-

[3] هي لغتنا الأم، خرجت من الجزيرة واتجهت إلى الشام وفارس والهند ومصر..إلخ.

قال - معرفاً - رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمـن تكلـم العربيـة فهو عربي) - أهمية تعلم اللغة العربية / ص٥٠ - ٥١ لـ (د. عبده بدوي)

و..كتب محمد القوصي (قد ظل ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم قائماً، وكـان الهـدف الأساس من دراسة اللغة العربية هو فهم الديـن فهمـاً كـاملاً، والوقـوف علـى معانيـه باعتباره وسيلة إلى فهم الأحكام الشرعية، وقد أكسب هذا الارتباط تلك اللغـة نوعـاً -...

الاستعمار[1] - ظل صامداً..، ومضى كل فاه طالها - وقد حفظها الله "بالقرآن الكريم" - بسروال خيبته خامداً.

و..لنعيد ما قاله: **مصائب قوم عند قوم فوائد**

إذاً..مصائبه عند أهل اللغة والأدب... وذوّاق القريض (فوائد..)!

٣ / التقتير:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وكان الإنسان قتورا﴾[2]

...=

من القداسة التي للقرآن، وأصبح الحفاظ عليها حفاظاً على القرآن، والتفريط فيها تفريطاً في القرآن) ص٩ - من كتيب المجلة العربية عدد (٥٢)

- ..وأيضاً: فالحق ما شهدت به الأعداء، قال (قال ورل): إن اللغة العربية لم تتقهقر قط فيما مضى، أمام أي لغة من اللغات التي احتكت بها..إلخ - المصدر السابق ص١٢

..ومع هذا، فـ/ هل تعلم (أن عدد أبنية كلام العرب ا لمستعمل والمهمل (١٢,٣٠٤,٣٢١) إثنا عشر مليوناً من الأبنية، وثلاث مئة ألفٍ، وأن عدد الألفاظ العربية (ستة ملايين وست مئة وتسعة وتسعون ألفاً).. لا يستعمل منها سوى (٥٦٢٠) لفظاً، والباقي مهمل!!) - كتاب "العين" للخليل بن أحمد -..مرجع سابق ص٧-٨

[1] وذلك - حينما رماها المستعمر بالقصور، وعدم الكفاية..إلخ وقد هبّ - مع من هب- (حافظ إبراهيم) - منافحاً وذائداً، على لسانها:

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات

..أنا (البحر) في أحشائه الدرّ كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي؟

[2] الإسراء، آية ١٠٠، ولنعرّف بأن ذلك مما جُبلت عليه النفس البشرية..، كما جُبلت على أشياء.. كحب البقاء والخلود مثلاً، والذكر - أو../ العمر الثاني.. كما يزعم أحمد شوقي - (انظر ما تقدم ص ٥١ هامش ٤)

.. قد تكون "مُعضلة" أبي الطيب أنه لم يُولد وفي فمه - كما يقال بالمثل- (ملعقة من ذهب)[1].. ولأنه يعلم - علم اليقين - أن:[2]

لا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله[3] ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده[4]

---

[1] - قال الأول - معرباً -:

إذا ورّث الجهال أبناءهم غنى وجاهاً، فما أشقى بني الحكماء -

[2] ولهذا - ما يناسب - قول.. أهل ذا التفنن:

قيل: ليس من خِلّة للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان الفقير حليماً قيل بليد، وإن كان عاقلاً قيل مكار، وإن كان بليغاً قيل مهذار، وإن كان ذكياً قيل لئيم، وإن كان صموتاً قيل غبي، وإن كان متأنياً قيل جبان، وإن كان عارفاً قيل متهور، وإن كان جواداً قيل مسرف، وإن كان مقتصداً قيل بخيل.

قال ابن كثير:

الناس أتباع من دامت له نِعَمُ والويل للمرء إن زلت به القدم
المال زين، ومن قلّت دراهمه حيّ كمن مات، إلا أنه صنم
لّما رأيت أخلائي وخالصتي والكلّ مستتر عني ومحتشم
أبدوا جفاءً وإعراضاً، فقلت لهم: أذنبتُ ذنباً؟ فقالوا: ذنبك العدم!

[3] قال أحد الشعراء معبراً عن ذلك:

من كان يملك درهمين تعلّمت شفتاه أنواع الكلام فقالا
وتقدّم الإخوان فاستمعوا له ورأيته بين الورى مختالا
لولا دراهمه التي في كيسه لرأيته أسوأ البرية حالا
إن الغنيّ إذا تكلم بالخطأ قالوا صدقت وما نطقت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجال مهابةً وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السّنان لمن أراد قتالا

فإذا (المجد) من أعمدة تشييده "المال"[1].. قال (أحمد شوقي):

بالعلم والمال يَبني الناس ملكهم[2] لم يُبن ملك على جهل وإقلال

لذا/ فقد بحث عنه كـ"من أضاع في التُّرب خاتمه"[3] لماذا؟

إذا لم تجد ما يبتر الفقر.. قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا

و..للجواب على هذا السؤال.. يجدر بنا أن نبسط بالتالي:[4] -إيراد.. أو تذكّرٍ لحادثةٍ جرت له في "الكوفة" – وهو غلام – رواها البديعي في "الصبح المنبي" خلاصتها:

...=

(٤) – أو قول الآخر:

فالمال فيه تجلّةٌ ومهابةٌ والفقر فيه مذلّةٌ وفضوحُ

(١) ..كما قال تعالى ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ الكهف، آية٤٦، وقال صلى الله عليه وسلم (نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح).. قال عروة بن الورد:

ذريني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير

ويبعده القريب وتزدريه حليلته(*) وينهره الصغير

– (*) أي: ..زوجه

(٢) قال حكيم العرب (قيس بن عاصم):

المال منبهة شهرة الكريم، ومغنى عن مسألة اللئيم، ثم قال: المسألة/ آخر كسب الرجال.

(٣) على تمثيله – هو –، ..قال ابن فُروجه:

(لم يكن فيه ما يُشينه ويسقطه، إلا بخله وشرهه على المال) – سِفر المتنبي لمحمود شاكر/ ص١٦٥ –

فـ/ كفى بالمرء نُبلاً أن تُعدّ معايبه

(٤) سرد.. لخلفية ذا "التقتير" لدى الشاعر.

(.. أنه أراد أن يشتري بطيخاً من بائع، فلما ساومه على الثمن سبّه البائع واحتقره. ثم جاء تاجر غني فرحب به البائع وباعه البطيخ محمولاً إلى البيت بأبخس مما عرض عليه المتنبي. ولما رجع كلمه المتنبي في ذلك فقال: اسكت، هذا يملك مئة ألف دينار. فوقع في نفس شاعرنا ذلك الحين حب المال والحرص عليه وأن الناس لا يحترمون غير صاحبه).[1]

نعود لنجيب عن السؤال السابق:

عاش المتنبي فقيراً في عهده الأول، وذاق بذلك العهد ألم الحرمان[2] وأيضاً ذل السؤال،[3] – حين قُدر[4] عليه رزقه–، ورغم اعترافه من بعد أن:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر، فالذي فعل الفقر

..إلا أن بصمات ذلك العهد "الأول" ظلّت تلعب بمخيلته، وتتجاذب إليها الوهم – أو الخوف الداخلي – "بعودته"..،

فأصبح رغم عزّة النفس والكبرياء والشموخ الذي يراه لنفسه –أو يصبغه عليها–.. يتمسّك بالمال حتى آخر عهده.[5]

---

[1] الصبح المنبي ١ – ٨٣.

[2] كما قال من سبقه:

دعيني للغنى أسعى، فإنني رأيت الناس: شرهم الفقير

[3] قيل بلغ ممدوحيه بالعهد الأول من حياته ٤٠ ممدوحاً.

[4] أي../ ضيّق.

[5] راجع رواية مقتله – مع ضعف سندها – والتي أثبتها ابن رشيق في "العمدة" ج١ ص٧٥–

ولو أعطى (أبا مُحسّدٍ) سُنحة لناصح، لقلنا له - تذكيراً وبجليّ ممن أتى بعده[1]-:

هوّن عليك، وكفكف دمعك الغالي ..لا يجمع الله بين الشعر والمالِ[2]

إلا أنّا لا نرى ذلك عيباً فيه "إذا فُسّر ذلك علمياً"..!

فكلٌّ يبحث عما ينقصه[3]، فأبو الطيب طلب المجد "الإمارة" وليست - هنا- تنقصه، بل يطمع بها.. لما يرى من تملّك الفرس والأتراك دُفّة الأمور في الدولة العباسية[4]..

---

[1] كما قال الآخر:

رضينا قسمة "الخلاق" فينا لنا علم وللجهال مال

فإن المال يفنى عن قريب وإن العلم ليس له زوال

[2] كتب زياد بن عبد الله الحارثي إلى الخليفة المنصور يسأله الزيادة في عطائه وأرزاقه.. وأبلغ في كتابه، فوقّع المنصور في القصة: إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعنا في رجل أبطرتاه.. وأمير المؤمنين يشق عليك من ذلك.. فاكتفِ بالبلاغة!

- قيل لحكيم: ما الذي يحل المعضلات؟، قال: الدرهم والدينار.

فالمال.. هنا تسيير لمعضلة معسرة.. وقديماً قيل في النقود:

فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السنان لمن أراد قتالا!-

[3] ..ألم يقل أهل الفلسفة – في اختيار المحبوبة – إن الحبيب وجد بها ما يُكمّله، أو عثر على ما ينقصه لديها.

لذلك يصوّر الشاعر مقام (حبيبته):

كأنّكِ جزءٌ من حياتي أضعته فلما التقيتكِ اهتديتُ إلى أصلي

[4] ..وقد أومأنا لشيء من المقصد – فيما تقدم ص٢١ وص٢٢ –

فكيف لا يُحرّك ذلك (ساكناً) من نفسيته "المعبأة بالعصبية العربية الجعفية، المُحدّرة من السلالة اليمانية"، فلا يخمد ذلك المطلب.. حتى لقي الفارس العربي "سيف الدولة"، فإذا فارقه.. يعود طالباً الإمارة -كما في عهده عند كافور-

إلا أن القصص - بعضها - التي رُويت عن بخله لا تحمل وزن الثقة الكاملة، ليس لأن شاعرنا ذم البخل فحسب...، بل:

وأسرع مفعول فعلت تغيّراً تكلّف[1] شيء في طباعك ضِدّه

فإذا كيف يذم البخل ثم يبخل[2]!، فلا جواب لمن صحّح كل ما قيل من قصص بخله - التي قد تكون.. تحت ذريعة:

إنما تُنجح المقالة في المرء إذا وافقت هوى في الفؤاد..-

فهو إن بخل ليس حباً في المال، وإنما "حِذاراً من الخطوب"[3]

آمن ما يكون المرء يوماً إذا لبس الحذار من ا لخطوب[4]

---

[1] تكلف: خبر أسرع.

[2] قال بعض أهل الأدب (البخيل: ليس له خليل).

[3] ذكر الجاحظ – في البخلاء – أن (أُحيحة) وهو من سادات الأوس – قبل الاسلام – قال في جمعه للمال..

ولو أني أشاء لنعمت بالاً وباكرني صبوح أو نشول

ومازحني على الأنطاع غيدٌ على أنيابهن الزنجبيل

.. ولكني أهبُ لجمع مالٍ فأمنع بعد ذلك أو أنيل

ولعل المتنبي أوضح هنا – المراد الآخر.. من الإمساك -: **وما كلّ على بُخلٍ.. يُلام!**

إلا أن ذلك لا ينبذ عنه العتاب حول ما عليه يُعاب، أو "يَستوهمه" مُحبّه فيه، (فالمسلم مرآة أخيه المسلم):

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحّت الأجسام بالعلل

فـ - بخله - فعل الحذر..أو "الخائف من الخطوب".. التي جرّبها وذاق ألم الحرمان والفاقة، فخاف عودتها، ولربما تبخّل[1] و لم يبخل[2]!..

ولعل -..أخيراً - المال (المجد) إن عزّ عليه المجد..،[3]

وأتعس خلق الله من زاد همُّه وقصر عما تشتهي النفس وجدهُ

وإلا فإن هناك ما يُسعد.. إن لم تُسعد الحال..، كما قال:

=...

[4] ليس موجوداً هذا البيت في الديوان.

[1] ونرى.. من رصانة شعره.. ما قال بعض أهل الأدب:

(أفضل ما استعان به الشاعر فضلُ غنى، أو فرط طبع..، ذلك أن الشاعر إذا صنع القصيدة وهو في غنى.. وسعة، نقحها وأنعم النظر فيها على مهل..، فإذا كان مع ذلك (طمع) قوي انبعاثها من يَنبُوعها..)

[2] قال الخليل بن أحمد - رحمه الله -:

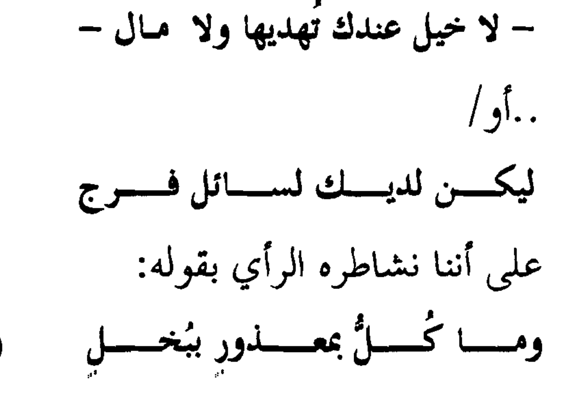
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال

والفقر في النفس، لا في المال نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وأسمى من ذلك، التوجيه النبوي، قال صلى الله عليه وسلم: (أحسن من أسلم ورُزق كفافاً وأغناه الله).

[3] قال محمود شاكر - رحمه الله - :

وفي المالِ عَونٌ على مثْلِها وفي البُؤسِ هونٌ وذُلٌ وقُلّ



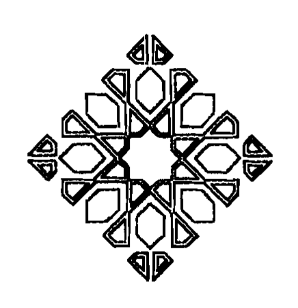
- لا خيل عندك تُهديها ولا مال - فليسعد النطق إن لم تُسعد الحال[1]

..أو/

ليكن لديك لسائل فرج أو لم يكن.. فليحسن الردّ

على أننا نشاطره الرأي بقوله:

وما كُلٌّ بمعذورٍ ببُخلٍ ولا كُلٌّ على بُخلٍ يُلام[2]



---

(1) أخذ أحد الحُكماء هذا المعنى..فنثره:

"إذا قصرت يدك عن المكافأة، فليطل لسانك بالشكر".

ونظم صفي الدين الحلي:

إن قصّر لفظي فإن طولك قد طالْ ما مَن فعلَ البرّ والجميل.. كمن قالْ

- وقد تشكّ أن المتنبي أخذ من مبنى عجز البحتري:

فليت ذاك الحبيب ساعفنا وكان وصل، إن لم يكُن مال -

(2) ..أو لنأخذ الجانب الآخر - من نوع البخل-، حين تعجّب الحارث بن عدوان التغلبي!

من عتاب خليلته بـ: **(وكيف يُعيب بخيلٌ.. بخيلا)**

مع التذكير في البين بين المراد..،

هو.. و" الإمارة ":

- وحيد من الخلانِ في كـلّ بلـدةٍ - ..إذا عظـم المطلـوب قـلّ المُسـاعد

نقول/ ..ربما خانه ذكاؤه - الجاف - لعدم استخدامه له.

فـ (لو[١]).. مثلاً نسي علويته[٢] "النسب لعلي رضي الله عنه"..

أو: لآن[٣] لمن حول "بدر بن عمار"..،

أو تنازل عن بعض الشموخ - الذي لم يكن لمعظمه داعٍ - والغرور عند سيف الدولة، ليكسب -..على الأقل - نُدبائه..

أو مثّل على كافور - وهو قادر على ذلك - أبين تمثيل،.. لربما نال مطلبه، وبلغ أربه، لكن كما قال هو:

---

(١) -..مع التذكير/ بأن "لو" تفتح عمل الشيطان! كما في الحديث الذي رواه مسلم (رحمه الله) في صحيحه -

(٢) وعلى هذا عبّر عن الصول.. لذلك بـ:

سـأطلب حقـي بالقنـا ومشـايخ لطـول مـا التثمـوا كـأنهم مُـردُ

(٣) اللين سلاحٌ قليل من يدرك مدى مفعوله، كما في معنى قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله رفيق يحب الرفق) رواه البخاري،.. وقد قال الراجز:

بُـنيّ إن الـبرّ شـيء هـين وجـةٌ طليـق وكـلام لـين

والمثل الهندي (السيف يقتل مرة، واللطف يقتل مئة مرة).

بل إن شاعرنا يدرك هذه المعاني..، بقوله لأميره الحمداني:

ترفـق أيهـا المـولى عليهـم إن الـترفق بالجـاني عتـابُ

أو قوله:

ومـا قتـل الأحـرار.. كـالعفو عنهـمُ..، إلخ..

وأسرع مفعول فعلت تغيراً تكلّف شيء في طباعك ضده

لهذا لم يقل من فراغ - أو للنظم.. فقط - :

وفؤادي من الملوك ، وإن كان ، لساني يُرى من الشعراء[1]

بل كان يعي ما يقصد.. ويلمّ بما يرمي له، عند إذ قال كافور - بعد فهم وإدراكٍ لمرمى هذا البيت في نفس المتنبي-:

(من يدّعي النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم.. ألا يدّعي الملك بعد كافور .. فحسبكم).[2]

و"المتنبي" استخدم ذكاءه بكل حاجة.. سوى أعزّ المنى[3] "الإمارة".

ف.. هل يضيره أن يلقى بلسان معسول ووجه بشرٍ مبذول -على الأقل- ليصل إلى الهدف؟!، أما قال "مُخاطباً ذاته":

تُريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشّهد من إبر النحل

فلا يجب أن يستنكف[4].. ليبلغ المأرب، وينال المطلب..، ويحظى بما يرغب..

---

[1].. وأخذ نزار قباني.. باطن هذه النفحة بقوله:

لا يبوس اليدين شعري.. وأحرى بالسلاطين أن يبوسوا يديه

[2] على ما في هذه الرواية من ضعف - لأن سندها بالنبوة ضعيف (انظر ما تقدم ص٢٤ هامش١) - ، إلا أن ذكرها ميلاً على ما وُصم به "الشاعر".

[3] يقول "كنجلي": بعض الرجال لديهم جميع المواهب، .. ما عدا موهبة استعمالها.. والانتفاع بها - أي تلكم المواهب! -

[4].. أو يتكبّر.

أبا المسك[1]..هل في الكأس فضلٌ أناله فإني أُغنّي منذُ حين.. وتشربُ

إذا لم تُنطْ بي ضيعة أو (ولاية) ..فجودك يكسوني، وشغلك يسلبُ

ألم يسّطع صبراً على (إبر النحل) - كما مثّلها - للوصول.. إلى المعالي[2].؟

..لنعد "تفسيراً" لنفسه التي لم يُحمّلها -حتى- وخز إبر النحل ليبلغ مناه، الذي صال وجال - وأنشأ الأمثال -.. عسى أن يتقلّده:

أولاً:

المتنبي يجيز لنا أن نقول - ومما تقدم - "بالتعبير الشائع" أنه مُعّقد[3]..، كيف؟

.. بقراءة أي كتاب عنه - ..بل من معظم الشكوى في شعره[4] - يلمس القارئ بوادر ذلك!

فهو إنسان مُتعالٍ يبحث عن المعالي - الإمارة - بلا مُصانعة.. كما قال زهير - في حِكمه- :

ومن لم يُصانع[5] في أمورٍ كثيرة يُضرّس بأنياب ويُوطأ بمنسمِ[6]

---

[1] يعني "كافور".

[2] قال "قوقارس" مُعرّفاً: (الصبر.. هو فن التشبث بالآمال).

[3] ..اعترض بإدب.. الأديب عبد الله خياط - عكاظ عدد ١١٨٤٢ - على وصفي: "عقده" - في (الطبعة الأولى)-، وأسماها طموحاً.. ثم استشهد بقول (ابن ميادة):

منى إن تكن.. تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زماناً رغدا

[4] - ألم يملأنا، ويؤلمنا.. بـ قوله:

ألا ليت شعري، هل أقول قصيدة فلا أشتكي فيها.. ولا أتعتبُ؟!

[5] أي: يداري.

-...

..حتى إنه أحياناً يهدم بعض ما يبني[1] - وبالتأكيد دون أن يدري-..[2] فمثلاً عند "كافور".. يمدحه باللفظ ويهجوه بالمعنى[3]، وهذا إدراكاً متشبّع من قوله:[4]

...=

(٦) فما البال.. وهو يطلب الإمارة..، ألا من الأحرى كل المصانعة.. هنا.

فـ كما قال أحمد شوقي: (**وما نيل المطالب بالتمنّي**)!!

(١) فهو - كأقرب وصف لحاله -: كالمُنبتّ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى (..كما جاء في الحديث).

(٢) وليس استخفافاً بذكائه، أو تقليلاً من دهائه..، بل ربما يغلبه اعتزازه بذاته، أو يطغى عليه كبريائه..، ونفحات افتخاره..التي لا تفارقه-انظر ما تقدم (ص٧٠) وما بعدها-

(٣) لذلك يقول ابن جني - من رواة شعره -:

قلت للمتنبي ما زدت إن جعلت كافور الإخشيدي أبا زنة (وأبو زنة كنية القرد) فضحك المتنبي ولم يقل شيئاً، أي أنه وافقه!!

وقد قال التوحيدي وابن جني وابن الخطيب من أن المتنبي يهجو كافور في قصائده التي يضمها مدحاً..، من ذلك:

وما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

-..والملوك لا يمدحون بأن الإنسان إذا لقيهم طرب..، لكن بالهيبة والتقدير.! -

وانظر في القصيدة الأولى قوله: - تجد/ يمدحه باللفظ ويهجوه بالمعنى! -:

قضى الله يا كافور أول وليس بقاضٍ من أن يرى لك ثانِ

(٤) من قصيدة يذكر بها خروج (شبيب) ومخالفته كافوراً:

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران

- قال العكبري في شرح هذا البيت: القمران: الشمس والقمر، تغليباً لأحدهما على

=...

وقـد يتقـارب الوصفـان جـداً ... وموصوفاهمـا متبـا عـدان

رغم علمه بدهاء كافور، وإدراكه لذاك الهجاء[1] - أو لنقل السلح[2] - ثم يتمنى منه الولاية..

وفي النفس حاجات وفيـك فطانـةً ... سـكوتي بيـان عندهـا.. وخطـاب

و لم يقف عند هذا..[3]، بل حينما قدِم أبو شجاع استأذن من كافور

...-

الآخر، كقولهم: العمران، أبو بكر، وعمر بن الخطاب. والمعنى: قال الواحدي، يقول: من عاداك دل على جهالته، وسقطت منزلته عند الناس، وعاداه كل أحد وذمه، ولو كان من أعدائك القمران، لصارا مذمومين مع عموم نفعهما -

(1) كقوله في قصيدة "الحمى" - وهو في.. كنفه -

ولمـا صـار ود النـاس خبـاً ... جزيـت علـى ابتسـامٍ.. بابتسـام

وصـرت أشـك في مـن أصطفيـه ... لعلمـي أنـه بعـض الأنـام

وبسط مراد البيت الأول..، قول ابن رشيق:

رُبّ تقضيـبٍ مـن غـير بغـض ... وبغـضٍ كـامن تحـت ابتسـام

(2) ..ألم يعترف بذلك - فيما بعد - بقوله.. **وشعراً قد مدحت به "الكركدن"** ..إلخ

وقد فسر البحتري - من قبل - هذا المنحا:

ولم أحـابك(*) في مـدحٍ تكذّبـه ... بالفعل منك، وبعض المدح من كذبِ

(*) أي: أسايرك.

(3) ولعل الأدهى من كل ذلك، رمي الشاعر - في أول لقاء مع كافور - بهذين البيتين(*).. حزناً ولوعة وحرقة على فراق الأمير الحمداني - دون وزن.. لمقام هذا "الحاكم":

كفـى بـك داء أن تـرى المـوت شـافيا ... وحسـب المنايـا أن يكـن أمانيـا

تمنيتهـا لمـا تمنيـت أن تـرى ... صديقـاً فأعيـا.. أو عـدواً مداجيـا

...-

بمدحه[1] وهذه سقطة من الشاعر[2].

وعودة إلى قصة مدح أبي شجاع (فاتك المجنون)،[3] يُستنتج منها عدم رضا كافور منه.. ولا يُعذر أبو الطيب لأنه يأس من نيل المطلب، فهذا

...-

- (*) وما يذكّر به البيتان إلا بقوله تعالى - على لسان أهل النار -: ﴿يا مالك ليقضي علينا ربك.. الآية﴾ أي يتمنوا من شدة العذاب "الموت".. وما هم ببالغيه -

وإن كان - اعتذاره الخفي - ما أجاده في ختام القصيدة (السالفة):

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب   يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

وهذا - أدبياً - يُعتبر قلّة أدب في التعامل مع "لكل مقام مقال"

- ولهذا.. فقد زجر عبد الملك بن مروان شاعره "جرير" - مع أنه كان يُخاطب نفسه - حين قال:

أتصحو أم فؤادك غيرُ صاح

إلا أن أبا الطيب عاد.. - بعد - لُينشئ..

فراق ومن فارقت غير مذمم   وأمّ.. ومن يممت خير ميمم

[1] مطلع القصيدة:

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

-.. ويذكّر هذا الإنشاء بقول سليمان ذي الدمنة:

ومن لا يؤاتيه على الجود وُجْدُه   فإن (جميل القول) إحدى المحامد

بذلك أوصاني أبي عن جدوده   وأوصوا بذاكم عن بكيل وحاشدِ -

[2] - فإدراك المقصد/ أن يستأذن، يُفهم المراد من قول: "سقطة"(*) -

(*) ..بالطبع/ إذا صحّ ما ذهبنا إليه.

[3] وفاتك - هذا - رومياً أُسر في فلسطين، وأخذه "كافور" من سيده بـ "الرملة".. وقرّبه إليه، وجعله في بطانته ثم خافه لما رأى من شجاعته، وكرمه، وإقبال الناس عليه..

...-

إن كـان حقيقيـاً في نفسـه..، لا يجيز لـه مـدح مـن لا يريـد كـافور أن يمدحه..

فالأصل أو لنقل: لو أن أبا الطيب استخدم فطنته فمـدح أبـا شـجاع ضمـن سياق يكون مبنياً بمدح كافور - لأنـه شـاعره - علـى الأقـل أمـام الجمـع.. ليحظى بتقدير الأمير لشخصه، ويسوغ عندها الطلب..، فإذا كان كافور - كما قال المتنبي - أدراك الملك، بـ (أيامٍ يُشبن النواصيا[1])، فكيـف وشـاعرنا مثله لم يرث شيئاً!، يستكثر.." الصبر" فقط[2].. دون المأرب[3].

...-

قال شاعرنا - يرثيه -:

أيـن منبتـه مـن بعـد منبتـه	"أبـي شـجاع" قريـع العُـرب والعجـم
.. لا فـاتك آخـر في مصـر نقصـده	ولا لـه خلـفٌ في النـاس كلهـم

- ولما لا..!، ألم يقل .. فيه:

تملّـك الحمـد حتـى مـا لمفتخـر	في الحمـد حـاءٌ ولا ميـمٌ ولا دالُ -

[1] وليس كما قال الآخر:

مـا زال يسـبق.. حتـى قـال حاسـده:	لـه طريـق إلى العليـاء مختصـر

أي أن الحساد يريدون طمس هـذا السبق ونسبته إلى سهولة أو يسر الطريق،.. لا إلى سالك الطريق.

[2] ..فهل غاب عنه قول أمية بن أبي الصلت:

اصـبر النفـس عنـد كـل ملـم	إن في الصـبر حيلـة المحتـال

[3] أين قوله - مخاطباً مهجته -:

تريديـن إدراك المعـالي رخيصـة	ولا بـد دون الشـهد مـن إبـر النحـل

ثانياً:

الغرور - العظمة - الكبرياء..[1]

- أين فضلي إذا قنعت من الدهر بعيشٍ مُعجّل التنكيد -

النفس الأبية.. التي كأنها من سلالة إمبراطورية ينتظر دوره.. بولايتها..

أما غرور المتنبي فهذا لا يُختلف عليه كثيراً، إذ هو بادٍ: من قول أبي فراس الحمداني[2] له.."ومن أنت يا دعيٌّ كِندة" -كمثال حيٍّ وكافٍ على غروره- [3]

..أما (الكبرياء) فيكفي "شاهداً" بيته البارز كبرياءً:

أبدو.. فيسجد من بالسوء يذكرني فلا أُعاتبه صفحاً وإهوانا

فهو لم يقف على "الصفح" الذي من شيم المحسنين[4]، بل بدأها بسجود "المعتذر" ثم يتبع صفحه استهانة بمقام ذلك المعتذر..، وإهواناً له..

---

[1] وقد توعّد رسولنا صلى الله عليه وسلم "العائل المستكبر" -العائل: الفقير- بـ وعيدٍ شديد. حيث قال:

(ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يُزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملكٌ كذّاب، وعائل مستكبر). رواه مسلم.. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] ..مع أنه داع قول (أبي فراس) هو من باب/ المنافسة - أو تماثل المهنة - انظر ما تقدم هامش (١) ص٨٣ -..وذلك جواباً على قوله:

(أنا) الذي نظر الأعمى إلى أدبي.. إلخ -

[3] راجع ميميته الشهيرة "عتابه لسيف الدولة".

[4] قال إمامهم حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم - من حديث (أوصاني ربي) -:

(...وأن أعفو عمن ظلمني،إلخ).

ثم يُقيّم (ذاته)[1].. مِمَن ذمّه.. بالنقص:

وإذا أتتك مذمتي من (ناقصٍ) فهي الشهادة لي بأني كاملُ

وبعد كل هذا يؤطّر هذه "القاعدة":

خليلك أنت.. لا من قلت خلّي وإن كثر التجمل.. والكلاما

وأما عظمته.. فمن تمجيده لذاته[2] يتّضحُ تعاظمه.. كقوله:

تغرّب لا مُستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

و.. النفس "الأبية":

ليس التعلل بالآمال من أربي ولا القناعة بالإقلال من شيمي

و...:

ذلّ من يغبط الذليل بعيش رُبّ عيشٍ أخفُّ منه الحمام

و...:

يقولون لي: ما أنت في كل بلدة وما تبتغي ؟ ما أبتغي جلّ أن يُسمى

ثالثاً:

لا يستقر على حال أو على مبدأ يصول من أجله أو يسعى لنيله.

- أو على قاعدة:

أتمنى أنني لا أتمنى فلقد بت بآمالي مُعنّى -

---

[1] ..قالت العرب: ثلاث مهلكات: شحّ مُطاع، وهوى مُتبع، وإعجاب المرء بنفسه.

[2] .../

أسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمرٍ مُنير

فساعة يدّعي العلوية..[1] ويُطالب بها - حتى نُفّر من دخول الكوفة[2]

- ما كنت أوّل من جنّب ركائبه شوقاً.. وفارق إلفاً غير مختار -

وساعة يُطالب عودة الملك "للعرب"، ليستعيدوا عزّتهم.. وأُخرى يُطالب بولاية أو إمارة.[3]

رابعاً:

الحزن..البكاء[4].. الحرقة.. كلها بمعنى واحد، وذات دلائل متوحّدة في ذاته[5]..

---

[1] النسب لعلي رضي الله عنه.

[2] راجع أسباب منعه دخول الكوفة حين رغبت جدته رؤيته، ولعل رثاءه لجدته مضمور به شيء من ذلك، بل .. وقال عمّا أصابه بسبب ذلك:

أذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

وأيضاً:

سأطلب حقي (*) بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مُرد

(*) وهذا الحق: هو "انتسابه للعلوية" - كما أسلفت..أعلاه -

..ونسمع ترنيمه - بعد تجاربٍ أخذت منه ما أخذت ! - مُعترفاً..

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي: المجد للسيف.. ليس المجد للقلمِ

[3] أقل.. القليل بنظره لهذا المطلب "الأخير". كقوله لكافور:

وفؤادي من الملوك وإن كا ن ، لساني يُرى من الشعراء

[4] - وكأن أبو فراس.. يعبّر عن كامنه حين قال:

إذا الليل أضواني.. بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكِبْرُ -

وقال أبو سلمى - ..كأنما يعنيه -:

كيف تبكي، وهل هناك دموعٌ ذهب الصحب والهوى.. والربيعُ

[5] كقوله.. مُخاطباً (عهده):

-...

وعندي دموع لو بكيت ببعضها   لفاضت بحور بعدهُنّ بحور[1]

.. ولذا / رمى هذا البيت:

أذاقني زمني بلوى شرقت بها   لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا[2]

ولو أردنا .. أن نستلهم له مبرر - عن هذه المُعاناة - لأخذنا قول محمود سامي البارودي - في محنة نفيه - مُعبّراً:

عناءٌ ويأس، واشتياقٌ وغربةٌ   ..ألا شدّ ما ألقاه في الدهر من غبنِ

(وقفة):

-..ومن وراء.. ماسبق- تحكم بحياة شاعرنا شيئان مهمان:

١/ ثورة داخلية في نفسه تدفعه إلى نقد كل شيء[3] - بدون مبالغة - بنظره ومقياسه "لهذا الشيء المنقود".

=...

عدوّي كلّ شيء منك حتى   لخلت ألاكم موغرة الصدور

[1] أبو بكر الشبلي.

[2] ..وتجده من بعد.. يُنشئ:

وقلّةِ ناصرٍ جُوزيت عنّي   بشرٍّ منك يا شرّ الدُّهور

- أوضح "العكبري" بأنه دعا على دهره، وهو زمنه الذي لم يجد فيه من الناس من يعنيه ويساعده على ما يريد، بأن يبتلى دهره هذا بدهر أخس منه وأشر.

لكن نبين: أن سب الدهر مذموم كما سيأتي -هامش ٢ ص١٣٠-،..إنما العذر الذي نجده/ ربما يقصد ظروفه، وتقلّب أحواله...إلخ.

- حتى قال..: [1]

قُبحاً لـك يـا زمـان[2] فـإن لـك مـن كـل وجـه قبيـح برقـع..-

٢ / حقده.. من ماذا: ربما من حاله ووضعه، أو من تسبب به!!

..ولو بالغنا لاستعرنا له قول المعري:

هـذا مـا جنـاه علـيّ أبـي، ومـا جنيـت علـى أحـد

فهاهو ذا يزفر.. بمبالغة -كعادته-:

مـن خـصّ بـالذمّ الفـراق.. فإننـي من لا يرى في الدهر شيئاً يُحمـد[3]

...-

[3] ألم يقل - كأنه يُثبت -:

تخـالف النـاس حتـى لا اتفـاق لهـم إلا على شجب، والخلف في الشـجب[*]

فقيـل: تخلـص نفـس المـرء سـالمة، وقيـل: تشـرك جسـم المـرء في العطـبِ

[*] الشجب: الهلاك -

وهذا من الخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة - كما قال الثعالبي - "اليتيمة" ١/١٧٢-..، وانظر (ص٧١) أمراء الشعر العباسي لـ (أنيس المقدسي).

[1] من قصيدة في رثاء "فاتك المجنون".

[2] ويعلم المسلم أن ذمّ الزمان منهيٌّ عنه!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الله تعالى: يسُب بنو آدم الدَهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار) الحديث - رواه البخاري.

[3] ومعنى البيت فسّره أحمد شوقي.. بقوله:

يـا نفـسُ دُنيـاكِ تُخفـي كـلَّ مبكيـةٍ وإن بـدا لـكِ منهـا حُسـنُ مبسـمِ

و.. التفاتٌ على بعض "دُرره" [1]

مدخل:

..." الشعر/ فن المتنبي الخاص[2]..، به ارتقى سلّم التاريخ،[3] وعن طريقه أظهر مواهبه، وكان مُعجباً به ومعتداً بأهميته، شغله عن بقية الفنون، واستهلك أكثر نشاطه العقلي والجمالي، ولم يعتبر نفسه حين استغرق فيه مُستهلكاً... في أمر تافه قليل الاعتبار، بل اندفع إليه بحماسةٍ قليلةِ النظير، وأدرك ماله من أثرٍ على حياة الناس وتفكيرهم، فكان يُشبّه شعره بالشمس المضيئة للكون.. كما سمّى قصائده بالشُّرد الخالدات".[4]

ولعلّي.. أُطلع القارئ على ما يحسن له الإشارة.. من بعض ذلك

---

[1] بين درر المتنبي التي علقت في الذاكرة حين الاطلاع المتكرر على ديوانه.. تفتقت عن هذه "القراءة".

[2] ..قال في مستهل لقائه بـ "سيف الدولة":

- فجئتك لا ألوي على أحدٍ - أحُثّ راحلتي: الفقر، والأدب!

[3] .. بل هو الذي عرّفنا بشخصه، و..عطف بذائقتنا.. إليه، وصدق ابن الوردي:

قيمة الإنسان ما أحسنه أكثر الإنسان منها.. أو أقلّ !

[4] كتاب "المحصول الفكري للمتنبي" لـ/ سهيل عثمان، ومنير كنعان، ص٣٢٢.

وإن كان المتنبي سمى شعره بالشُّرد الخالدات، فقد سبقه (كعب) بوصف شعر والده زُهير بـ.. "بقين بقا الرحى في الحجر الأصم". - مع عدم البناء على المثل/ كل فتاة بأبيها معجبة - لأنه شاعر(*) رضي الله عنه من الفحول.. ولا يُثني إلا على من يستحق الثناء.

- (*) قال ابن سلام - مبالغاً: لا يضبط الشعر إلا أهله -

الأثير[1].. وقعه..

١/ بـأبي مـن وددتـه فافترقنـا   وقضـى الله بعـد ذاك اجتماعـا

..وافترقنا حـولاً، فلمـا التقينـا   كـان تسـليمه علـيّ وداعـا

أودُّ أُحادث "ذاتك": - كما قيل - إن هذين البيتين أوّل ما نظمت!

هل داعيهما: أوّل "حب" خلب جنانك[2]، فـأجلى بـه عـن موهبتـك - الشعرية - بعض غِشاوةٍ.. أو قليلُ "حياءٍ" كان يسترها؟

.. ربما أستنتج "جوابك" من سيرتك.. أو بداياتك الشعرية.. كما:

أيـا خـدّد الله ورد الخـدود

و...:

نشرت ثلاث ذوائب من شـعرها   في ليلـة، فـأرت ليالـي أربعـا

واستقبلت قمـر السـماء بوجههـا   فـأرتني القمريـن، في وقـت معـا

ثم.. أُحوّر عن هذا.. إلى:

أأحبت.. فنظمت !

أم أُعجبت.. بمن لاقيت !؟

---

[1] قال د. عبد العزيز الدسوقي: إن في شعر المتنبي شحنات حارة متأججة، وفيها إشعاع فني يحرك الوجدان، ويثير العقل من أين يجيء هذا الإشعاع الفني؟ إنه ينبعث في الأساس من سحر الشخصية وجاذبيتها وبهذا الإشعاع الفني يمكن أن نصف كثيراً من مشاهد قصائده، وندرك أسرارها الفنية.

[2] ..كما أوضحت بعد:

ولكـن حبّـاً خـامر القلـب في (الصبـا)   يزيـد علـى مـرّ الزمـان ويشـتدُّ

أم هدف - لم يبنْ لنا - وددت إيصاله.. فنسجت ذينك البيتين!

مهما يكن "الجواب" فهو - وهذان البيتان - إمارةٌ لأوليات "موهبتك" في الشعر.. لتكن:

أبا الطيب.. (الشاعر).. المتنبي..، الذي: "ملأ الدنيا وشغل أهلها!".

٢ / يكاد أبو الطيب "الخبير بالحياة" يقرأ زماننا - الذي ماثل زمانه - فيُلقي علينا من قوارعه أو (حِكمةُ).. مثل:

إنّا لفي زمن ترك القبيح به　　　من أكثر الناس إحسان وإجمال

الله.. يا أبا الطيّب، من أكثر!، ألا تفاءلت وقلت من بعض الناس..، أو على الأقل من شطر الناس..،

لا أيها المُجيد - في النظم - أظن أنه خانك التشاؤم بهذه المرّة،[1] فترك القبيح من سمات المسلم وهو الذي - أظنك - لم تعنه بهذا الإنشاء![2]، ولا أظن أنك ستجيبني:

وكم من عائب قولاً صحيحاً　　　وآفته من الفهم السقيم

لأني كما أسلفت أرى ترك القبيح من سمات المسلم السامي بمثل هذه

---

(١) ..كما خانك من قبل.. - مثلاً:

ومن عرف الأيام معرفتي بها　　　وبالناس، روّى رمحه غير راحم

- وهذه.. مخالفة شرعاً.. ولكن سامحه الله -

(٢) وروى البخاري رضي الله عنه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "إن خياركم أحسنكم أخلاقاً".

"الخصال"[1].

.. إذا لم أُعب قولاً صحيحاً، بل قللت من صدق ما لا يحتمل شطر الصحة - إلا ما شاء الله -.

ثم هذه المشأمة، رجوت أن لا أراها حكمة تُنطق بين دفتي ديوانك،.. إذ المرء مُعلّق - بعد الرجاء بالله والتوكل عليه - بحبال الآمال والأماني التي تُضيء ولو بصيصاً من النور في طريق الحياة - الطويل -..

٣/ نحنُ من ضايق الزمان له فيـ ـكَ وخانته قُربك الأيام

لا أعتقد أيها "العبقري" وأنت تُفخم ذاتك بـ -نحن- ثم نقلب إلى ممدوحك بـ ضايق الزمان فيه.. وخانت الأيام بقربه، أنك سوف تسلب من تقويمنا لك أو لممدوحك!

فهذا الذي ضايق الزمان فيه/ أمضيت في رحابه "تسع سنين"[2] أي ما يقارب "عقداً" من عمرك، وكان هذا العقد - مرحلة الأربعينات من العهد المضفّر منك بالدرر-[3]

---

[1] قال العابد عبد الله بن المبارك - رحمه الله -:

وإن امرؤ لا يرتجي الناس عفوه ولا يأمنوا منه الأذى للئيم

- .. ويرى ماركوس أوريليوس: أن أقوى ضروب الانتقام هو: ألا تكون صورة من عدوك.

[2] لدى سيف الدولة.

[3] .. حتى قيل (أن ما نظمه خلالها في مدح سيف الدولة يبلغ ثلث شعره).

-جواهر المتنبي ص١٦/ عبد الله خياط-

ولا أريد أن أُسهب وأقول: أنه كان بالإمكان أن تتم عيشك وأنت في رحابه[1].. لولا الحسّاد، أو لنقل (المنافسون)[2] - لا مضايقة الزمان.. أو الأيام كما قلت-.

الذين ما انفكوا للتفريق بينكما.. وليس الزمان[3] أو خيانة الأيام.. كما حاولت إيهامنا بأنهن السبب.. بهذه المضايقة - أو الخيانة- وصداه داخلك.. - فقط - أن/

وقت يضيع، وعمر ليت مُدّته في غير أمّته.. من سالف الأمم

إذاً..!..،

٤ / وما أنا مِمَن يدّعي الشوق قلبه ويحتجّ في ترك الزيارة بالشغل

لا أكذب.. إني حين أقرأ لك.. مثل ذلك أن أردد - في صداي - أنك استطلعت إحساسي الداخلي، وداخلت وجداني كحالك في هذا (البيت) ..لأني أحتجّ مثلك.. - ليس دائماً - بترك الزيارة بالشغل[4]!

---

[1] ..ألم تقل - في ضيافته -:

قيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

- وقد قيل (في معنى عجز البيت): الإنسان أسير الإحسان -

[2] ..أو خُيّل إليك - من الغرور - ..أنهم حساد! - انظر ما تقدم ص١١٩ -

..يُعلله قولك:

بذى قضت الأيام بين بعضها مصائب قوم، عند قوم فوائدُ

[3] والذي - على حد تعبير أحد أقرانك (أبو تمام)- بـ/ **هو الزمان لا يُصغي إلى من يعاتبه!!**

[4] .. ربما لظاهر "العلة" هذه - المنطبقة على البعض - :

جزاء كل قريب منكمُ.. ملل وحظّ كل مُحبٍّ منكم.. ضغن

و..ما يدريك -أيها القارئ للذات- أنني (أحتجّ في ترك الزيارة بالشغل) علم الله أنك لو خالطتني.. لقلت أن هذا الخليط فاضحي أو مفشي ما كتمت بسري-[1]

٥ / وما .. قتل الأحرار كالعفو عنهم

أشهد أنك أصبت كبد الحقيقة،..

فهل يقتل "الحر" غير العفو عنه، كفاك أيها - الخبير- مسّاً لمواقع في القلوب..، تفيض حين تقرأ مثل هذا الزخم.. أن لا تكمل فتقتل الإحساس، يا أيها "الحساس" بما تتناوله من قول على واقع ذوي النفوس الكبيرة بمعناها[2] -لا بمبناها-.

---

[1] بل كطبيب (علم النفس) يقرؤها من الخارج.

قال الأستاذ شرارة - ت١٩٨٨م - عن هذه الخاصية:

(.. هذه البراعة في وصف الانطباعيات الخاصة التي جعلت أبا الطيب يفوق معظم الشعراء في تاريخ العالم على وجه التقريب لا في دنيا العرب وحدها.. مهما عيب عليه من هفوات، أو عُدّ له من سقطات).

-.. ومع ما تقدم (ص٩٧ هامش ٢) نردد قول ابن سلام (ما أرادت أن تطعن في شعر شاعر إلا وجدت) وانظر هامش (٢) ص ٤٧ -

[2] قال عنهم - أو فيهم - سليمان العيسى:

الصادقون يتامى في مدينتنا	**في جيلنا يمضغون اليأس والألما**
الصادقون وهم في اليأس قافلتي	**وإن حصدت السراب المر والسأما**
نبني على شرفات الغيب أغنية	**تبقى وتذهب في جفن المدى حلما**

٦/ خُلقتُ ألوفاً لو رجعت إلى الصبا　　لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

إذاً ماذا نقول - جواباً - لأبي العتاهية حين يلذعنا.. بـ:

ألا ليت الشباب يعود يوماً　　لأخبره بما فعل المشيبُ[١]

فهل صَدْق (هو) بما يألم من شيبته، ووهن جسده، وضعف قواه..!، أم:

أنت الصادق - أيها الأليف بيومك وساعتك على ماهي عليه-.

إن كان "أبو العتاهية" صدّق قوله.. كل من شاب فعيب عليه سنّه ليخضب شعره،[٢] فقد صدّقك مجرى حياتك.[٣]

---

[١] وأقلّ ما فعله "المشيب".. ما قاله أبو تمام:

يا نسيب الثغام(*).. ذنبك أبقى　　حسناتي عند الغواني عيوبا

(*) نسيب الثغام: الشعر الأبيض.

وسبقه عمر بن أبي ربيعة - تحقيقاً -:

رأين (الغواني) الشيب لاح بعارضي　　فأعرضن عنّي بالخدود النّواظرِ

[٢] قال (ابن الرومي) - بتفنن المُعتذر عن الخضاب -:

لم أخضّب الشيب للغواني　　لأبتغي عندها ودادا

لكن خضابي على شبابي　　لبست من بعدهِ حدادا

ثم انسجامه..مع مراد ذاته التي دعته للخضاب وقالت: (.. إن دفن المعيب .. غيرُ معيب).

بل.. وهذا من أمر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم..بقوله:

(غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد) - الحديث -

[٣] برغم زعمك - بإحدى المراثي -

وإذا الشيب قال أفّ فما　　ملّ الحياة.. ولكن الشيب ملا

..آلة العيش صحة وشباب　　فإذا ولّيا عن المرء... ولا

-...

إذ فارقت حلب الشهباء بعد سنين - لا أظن أنك عشت أجمل منها[1]- ..ومع هذا لم تشتق.. ولم تندم.. ولم تزر سراً.. ولا حاكتك نفسك لذلك[2]...،

...=

والبيت الثاني.. بُني من قوله صلى الله عليه وسلم: "نعمتان مغبون بهما كثير من الناس: الصحّة والفراغ" - الحديث -

أو الاعتراف الواضح.. في رثاء أم سيف الدولة -:

ومن لم يعشق الدنيا قديماً ولكن لا سبيل إلى الوصال

وفي المثل الأمريكي - ما يعزّز ذلك -:

"مهما ثقل العبء الذي يحمله المرء، تظل الحياة دائماً حلوة".

[1] قال الباحث (محمد قجة) - رئيس جميعة العاديات الأثرية بحلب-:

(..ويعد مكوث المتنبي في حلب من أعظم فترات حياته وأكثرها ازدهاراً، وقد كتب فيها أجمل قصائده على الإطلاق وأصدقها).

ثم.. أضاف: (عرفت حياة الشاعر العربي الكبير أبي الطيب المتنبي ثلاث مراحل في ثلاث مدن هي الكوفة، حلب والقاهرة، إلا أن مرحلته الحلبية تعتبر أهم مرحلة في حياته على الصعيدين الشعري والشخصي وهي زهاء تسع سنوات -وقد دخلها بعد وفاة زوجته وهو في الرابع والثلاثين من عمره -..)

[2] ..ودليلي على ذلك.. - أو الأفصح - قول "لاوتزو":

إذا شئت معرفة ما يشغل بال المرء يكفيك أن تُصغي إلى حديثه!

..فهل أستثني لك - من هذا - قولك في رثائك (خوله).. لأميرك:

يظن فؤادي غير ملتهب وأن دمع عيوني غير منسكب

..بلى، وحرمة من كانت مراتعه لحرمة المجد والقصاد والأدبِ

وفارقت - من قبل - الكوفة والصبا... وجمال (عهده) الذي بها، وجلال موقعه في الفؤاد، ولم يتألم سوى قول "للمشاعر لديك" عنها:

لكِ يا منازل في القلوبِ منازلُ

- فقط..!- ..ثم نواح الذكرى:

ذكرى الصبا ومراتع الآرامِ جلبت حمامي قبل وقت حمامي

نعم هكذا خُلقت ألوفاً..، لكن الحقيقة تُكّذب حتى واقع المرء:

أحنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم ..وأين من المشتاق عنقاء مُغرّب[1]

والحقيقة ـ هذه ـ من (الفِطرة)، وليس بيدك أيها المُبدع تغيير سَلمها - رغم تكابرك عليها-...

مغانِ الصّبا تهوي عليها المعاولُ أضاق الفضاء!..، حتى تُراعِ الأوائلُ[2]

مغانٍ.. هي التاريخ والعمر..والهوى أفي غمضةٍ تقضي عليها المعاولُ

......!!

٧ / غني عن الأوطان لا يستخفّني إلى بلد سافرت عنه إياب

وكان من الأولى أن تقول (لا يُحنني).. وليس لا يستخفٌني.؟!

إذ أن الحنين[3] هو الذي يُعيد[4].. لا الاستخفاف.

---

[1] في عجز البيت: أخذاً من المثل العربي: (حلّقت به عنقاء[*] مُغرب).. إذا ما أخبروا عن هلاك شيء وبطلانه.

- [*] قال الجاحظ العنقاء: طائر خرافي يُسمع به ولا يرى -

[2] عبد العزيز المسلّم.

[3] قال صاحب ليلى "المجنون":

-...

قال – المولّع – (ابن زريق البغدادي)..

بالله يا منزل الكرخ الذي درست ... أثاره.. وعفت مُذ بنت أربعه

هل الزمان معيدٌ فيك لذّتنا ... أم الليالي التي أمضته.. تُرجعه

.. لا أكذب الله ثوب العذر منخرقٌ ... عنّي بفرقته..، لكني أُرقّعه

...إلخ.

٨ / يموت راعي الضأن في جهله ... ميتة "جالينوس" في طِبّه

إذاً: هو "الموت" الذي/.. – ما عنه ملاذٌ ومهرب !..[1]

ولا يفرق مذاقه بين من كلّ العمر، وأمضى السنين... وبدّد زهرة أيامه في العلم والطلب والتحصيل،[2] وبين من لا يُميّز بين الألف والقائم المستقيم[3]..،

...–

وأعظم ما يكون الشوق يوماً ... إذا نأت الديار عن الديار

(٤) قال أبو العلاء المعري:

فيا برق.. ليس "الكرخ" داري، وإنما ... رماني إليه الدهر منذ ليال

فهل فيك من ماء "المعرة" قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسال

(١) كما يقول (محمد بن عثيمين).

(٢) و.. كما قُلت..

أفاضل الناس أغراض لدى الزمن ... يخلو من الهم.. أخلاهم من الفطنِ !!

(٣) ربما لأنه.. كما يعتذر له حمد الحجي:

نظر إلى الكون نظرة عابر ... يمرّ على الأشياء دون عناءِ

قال "سعد البواردي":

يحيا العالم ثم يرحل، وبقدر ما ورّث في حياته من علم يُشكر ويحيا المفكر ثم يرحل، ...–

إلا أن - الموت الذي يجتمع به الجاهل والعالم - مرحلة التقاء فقط..، ثم بعد الموت يفترقان كما كانا..، قال تعالى - مذكراً أو مُمايزاً -:

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[١]؟!

فالعالم بعد موته "شهادة التاريخ" له ولعلمه[٢]، وما خلّف كافية لإنصافه،.. من ذلك الجاهل الذي عاش ومات ولم يدرِ به سوى أقرب ذويه، أو بعض مُحبّيه..!

وقد مات أقوامٌ لا عداد هم كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا[٣]

...-

وبقدر ما أعطى لغيره من زادٍ يُذكر.. لا شيء يبقى مع رحلة القبر إلا مرحلة العلم والفكر.. والذكر/ حتى جاء صالحاً ومُصلحاً.

[١] سورة الزمر، آية٩.

[٢] هذا في الدنيا إن كان من أهلها فقط، - فله ما رمى منها، من جوائز وتمجيد.. وخلود!

..أما هناك في يومٍ لا ينفع فيه مالٌ.. ولا بنون - ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾سورة الفرقان، آية٢٣.

أما إن كان مؤمناً -وعابداً(*) -.. بانياً علمه على ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فله.. من وعده سبحانه..﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن..﴾سورة طه، الآية١١٢.

- (*) إذ لا يكفي العلم.. ولا حتى العمل بلا إيمان!.وقد مثّل له سبحانه وتعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾سورة النور، آية٣٩-

[٣] أحمد شوقي..، والقائل مُستثيراً الهمم..

...-

هنا "الإنصاف".. وليس الموت الذي يُعدّ - فقط - نقطة إلتقاء ثانية بعد الولادة بين العالم.. والجاهل.

٩ / والهمُّ يخترم الجسيم نحافةً ويُشيبُ ناصيةَ الصبيّ ويهرمُ

أوآ.. ما دون ذلك مُلغى يا شاعرنا..؟!

كيف لك أنت و(الهمّ) هذا من الغم الذي يُطبق على القلب فلا يُريه إلا ما يكابده الإنسان.. فإنه - أي الهم - يُعلّ من حمله، ويُعيي[١] من نقله، ويُحلّ البياض في المقلة..[٢]

أوآ.. تظن يا أبا الطيب أنك وحدك المهموم..؟ لا و(الذي خلقك من تُراب ثم سوّاك رجلا..) فإن من جرّب الحياة وخبِرها../ أمسى والهموم تُبيّض شعره، وتُظلم نوره، وتكدّر صفوه[٣]، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾[٤].

...=

إذا ما مُتّ.. ونفق الحمار أبينك فرقٌ.... والحمارُ !!

[١] يتعب.

[٢] قال تعالى في يعقوب على فراق يوسف عليهم السلام: ﴿وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾سورة يوسف، آية٨٤.

[٣] قال (ابن الرومي):

هم الناس والدنيا، ولا بد من قذى يلم بعين أو يكّدر مشربا

ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي المهـ ـذّب في الدنيا، ولست المهذبا

[٤] سورة البلد، آية ٤.

=...

وهمٌّ يختلف عن (همّ)..

فمن همّه كبير كبرت ذاته وتوسّعت مداركه، حتى يظن أن العمر - مع تطاوله- قد لا يفي لتحقيق المُنى، كيف لا..؟، قال أحد الصالحين - ذوي "النفوس الكبيرة" و"الهمم العالية"..-: (إن الأعمال أكثر من الأوقات)[1].

فكيف تكثر هذه الأعمال..!، وقد شكى الناس اليوم من الفراغ.. وقلّة الأعمال.![2]

إنما كثرة الأعمال لديه لِعظم الهمّة، وجسامة الأمانة - العمل الذي زوى له وعليه نفسه -، بل وآل عليها ذلك (فرضاً):

...-

وقوله تعالى: ﴿ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾ سورة الإنشقاق، آية٦.

والكدح: أشد أنواع الشقاء.

[1] يُذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان إذا دخل "الخلاء" قال لإحدى تلاميذه: اقرأ وارفع صوتك - استثماراً للوقت.. حتى هناك! -

قال الحسن البصري رحمه الله - من قبل -:

أدركت أقواماً كان أحدُهم أشحُّ على عُمره منه على درهمه!

وكان علامة الشام (جمال الدين القاسمي) رحمه الله يقول - مخاطباً من يقعدون على المقاهي.. تسلّياً -: آهٍ يا ليت الأوقات تشترى، فأشتري أوقاتكم منكم.

[2] قال اليونان (أغلى النفقات إضاعة الوقت).

قال ابن هبيرة:

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه   وأراه أهون ما عليك يضيعُ

وإذا كـانت النفـوس كبـاراً تعبـت في مـرادها الأجسـام

هنا ينطبق على مثله انحلال الجسم وشيبه.. في عهد الصبا.

١٠/ كد عواك:كلٌّ يدّعي صحة العقل (ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل[١])!

- فعلاً.. كما قال مجنون ليلى: -وإن كان يقصدُ عاذله والحُسّدِ..

كما قال مجنون ليلى ../ **وذو الجهل يا (ليلى) يجهل** -

هذه والله البلوى: من ذا الذي يدري لما فيه من جهل! [٢]

إذ أن هذا (الجهل) هو المُضني: الجهل المركّب..

عزيزي أيها الحكيم: إن (الجهل المركب) الذي عبّر عن صاحبه بـ: "صحة العقل" أفرز من مثله بزماننا كثراً، بل من هذا الكُثر لم يدّع

---

[١] .. ليذكّرنا – هذا العجز. بقول الشافعي -أو "الخليل بن أحمد" - رحمهم الله: الرجال أربعة.. ومنهم: رجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري..، فذاك غافل فنبِّهوه..،

.. حتى إن شاعرنا أغرب.. في التعريف.. عنه:

مَن جاهل بي.. وهو يجهلُ جهلهُ ويجهلُ علمي أنه بي "جاهل"

ربما هذا.. من معنى نظم الخليل بن أحمد في قوله - من باب العتب -:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

[٢] قال صلى الله عليه وسلم: "رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه".

وأجاب حكيم - حين سُئل: ما أفضل العقل - بـ/ معرفة المرء بنفسه.

- وسُئل سقراط: كيف تبوأت مكانتك؟ فأجاب:

"ربما لأنني الشخص الوحيد الذي يعرف أنه لا يعرف!".

صحّةُ العقل.. - فقط -، بل قلب علينا ظهرَ المِجن وأوسمنا بالتخلّف، وهذا لم؟ لأنّا لم نتّبع طريقته، ونتفتّح على العالم ونأخذ منه - أي هذا العالم- سيِّئة وحسنة، كما كان يعلّمه - أي/ صاحب الجهل المُركّب - أُستاذه[1] عميد الأدب[2]!.

فهل استمع إلى تلميح أبي نواس:

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة .. حفظت شيئاً، وغابت عنك أشياءُ

لذا اسمح لي أن أقول لك: إننا أولى بالتمثّل بهذا البيت "الخالد".. والذي خلّده حقيقته الظاهرة - بالأخص - بهذا العصر!!

١١/ ولم تزل قلّة الإ نصاف قاطعةً بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

أتقولها صادقاً..!؟

والذي فلق الحب والنوى، وأخرج المرعى، أن ليس من سببٍ يُنفّر القلوب -أو يشتتها - ..ويشزرها عن بعضها كمثل "قلّة الإنصاف"،

---

[1] .. فلا نستعجب - أو نستكثر - ..حين وخز أحد المُستشرقين - ما ولّفت جُعبت هذا "...."/ أن لم يزد على القول (هذه بضاعتنا رُدّت إلينا).

- بالمناسبة - حين سُئل الشاعر إبراهيم العريّض: أن طه حسين لم يُعط المتنبي حقه.. من البحث؟ أجاب: بأن طه حسين لا يعرف شيئاً عن المتنبي، بدليل أنه يعتبر إحدى روائع المتنبي - طوى الجزيرة حتى جاءتني خبرٌ - شطحة من شطحات الشباب!! (المجلة العربية عدد ٢٦١)

[2] لكن.. أي أدب!، يجب أن نحدد، أو نقول - كما قيل عنه -: (سفير الأدب الفرنسي.. في مصر).

وعدم التقدير، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه..[1]

.. فما معنى/ أن تتشح من المروءة والأخلاق و"العُلا" ما يجبل الغريب (الأريب) على وزنك بمثقالهن،.. ثم لا تجد ذلك - التقدير - من ذوي رحمك - أولى الناس بإنصافك -!.. فـ:

"ظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضة — على القلب من وقع السهام المهند"[2]

وسبحان الله أن ليس سجية ذلك (قلّة الإنصاف) في الإنسان لأخيه الإنسان -فحسب-.. بل "**إن العود في أرضه نوعٌ من الخشب..!**"[3].

.. والله أعلم: أن هذا من أسباب التغرّب والفراق، أو البُعد عمّن لا يثمّن الذات..، قال قبلك أبو العتاهية:

أخوك الذي من نفسه لك منصفٌ[4] — إذا المرء لم يُنصفك[5] فليس أخاكا

و..كأن المثل القائل: "من عرفك صغيراً.. حقرك كبيراً".. ولّدهُ قلّة -أو عدم - "الإنصاف"، وكثرة الاستخفاف، وعدم الالتفاف على من يستحق..

---

[1] قال الأفوه الأودي:

.. ولم أرَ في الخطوب أشدّ هولاً — وأصعب من معاداة الرجال

[2] من معلقة "طرفة بن العبد".

[3] - قال أبو تمام:

لولا احتراق النار فيما جاورت — ما كان يعرف طيب ريح العودِ.. -

[4] ..قال (د. أحمد أبو شادي):

وإذا الأخوّة أنصفت، لم يجترئ — بين الخوارج من يدس إخاء

[5] .. وفي المثل -الفارسي- "لم يُنصفك.. من أحوجك إلى الشكوى"

وربما - من هذا - ما جعلك أيها الفذّ تُؤلّف هذا البيت:

..فلا عبرت بي ساعة لا تُعزّني ..ولا صحبتني مُهجةٌ تقبل الظُلما[1]

وهكذا أبداً.. أنت!!

١٢/ إذا ساء فعل المرء ساءت وصدّق ما يعتاده.. من توهم

وهذا الذي - ربما - .. يجعل أهل "المعاصي" -أعاذنا الله-يرون صور معاصيهم في الغير، فيتهمون.. دون وعيٍ منهم،

لكنها حقيقة تكشف عن أسرار "الذات" أو تشفّها.. وتُبيّن عن مكنون يعجز إخفاء صداه الداخلي[2] من ابتلي بشيء -نسأل الله العافية-، وهذا دليل على إدراك "ملكتكَ" بالنفس البشرية، كي تُخالجها، ولهذا قيل في المثل "إن السارق يسرّق الناس"..

- ربما -: لأنه يراهم بطبعه.. لا غير!.

ثـــم:

.. ولو أردت العود - للورود من ذا المعين - لرددت "باستطراد"..:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

أو/ ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

---

[1] ..وهذا.. صورة من قول عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلّة بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظلِ

[2] قال زهير بن أبي سلمى - في حِكمه -:

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقة وإن خالها تخفى على الناسِ تُعلمِ

أو/ ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته ..بدُّ

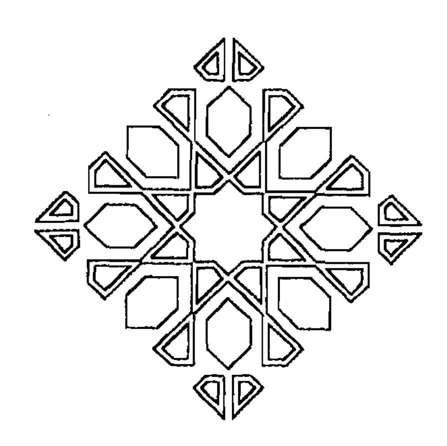
أو/ ومن العداوة ما ينالك نفعه ..ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

أو/ ستألف فقدان الذي أنت فاقدُ كإلفك فقدان الذي أنت واجد

أو/ من يهن يسهل الهوان عليه ما لجُرح بميّت إيلامُ

أو/ ذو العقل يشقى بالنعيم بعقله وأخو الجهالة بالشقاوة ينعمُ

أو .. أو .. إلخ..،



على أثر.. نفيسه :

هل أقامك الفكر بين العجز والتعب!...، لأنها:

تصفــو الحيــاة لغــافل أو جــاهل ... عمــا مضــى منهــا ومــا يتوقــع

ولمــن يغــالط في الحقــائق نفســه ... ويســومها طلــب المحــال فتطمــع

أو أنك عرفت أن:

أفاضل الناس أغراض لدى الزمن ... يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

فتيقنت بأن:

مـا كـل مـا يتمنـى المـرء يدركـه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

هذا مع أنه ـ كما تعلم ـ:

لا يُـدرك المجـد إلا سـيّدٌ فطـنٌ ... لما يشقُّ على السادات فعّال[1]

إذ..

لـولا المشـقة سـاد النـاس كلهـم ... الجـود يفقـر، والإقـدام قتـال

أو خوفاً من :

تريديـن[2] إدراك المعالـي رخيصـة ... ولا بد دون الشهد من إبر النحل..،

أم ترى.. أن/

لا مجـد في الدنيـا لمـن قـلّ مالـه ... ولا مال في الدنيـا لمـن قـلّ مجـده

واقتنعت بما آلت إليه،.. بعدما:

---

[1] قال بعض البلغاء: (أحسن المكارم: عفو المقتدر، وجود المفتقر).

[2] مخاطباً "مهجته".

لبست صروف الدهر أخشن ملبس ... فعرّقنـــي نابـــاً ومزّقـــني ظفـــرا

ثم..:

أعطى الزمـان فمـا قبلـت عطـاءه ... وأراد لـــي.. فـأردت أن أتخـــيرا

لأنك ترى:

من كان فوق محـل الشـمس موضعـه ... فليــس يرفعــه شــيء ولا يضــع

هكذا..

وإذا كـــانت النفـــوس كبـــاراً ... تعبـــت في مرادهــا الأجســـام

فــ:

.. .. بلغــت مــن العليـا كـل مكـان

وبهذا:

كـل مـا لم يكـن مـن الصعـب في ... الأنفـس سـهل فيهـا إذا هـو كانـا

لأن:

مـا الخـوف إلا مـا تخوّفـه الفتـى ... ومـا الأمـنُ إلا مـا رآه أمانـا

و.. بدون ذلك، - تعزيةً -..

ومـن تفكّـــر في الدنيـا ومهجتـه ... أقامـه الفكـر بـين العجـز والتعـب

أو قد يكون:

.. .. إذا عظـم المطلـوب قـل المسـاعد

فهل بقي شيء ..؟ ، نعم، هذا الاعتراف "الأخير"[1]:

---

[1] .. وحُقّ للمُتلقي .. لهذا الاعتراف.. - الآتي بعد فوات أوانـه - أن يستشـهد دون..
أن يعنيك- بقول أحمد شوقي:

-...

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي: المجد للسيف،..ليس المجد للقلم

....،

هذا شاعرنا "العربي" الذي/ خطا فوهة الفُلاة بل دليل، وسار بين الهجير بلا لثام، بعزم تسهل بقوّته المصاعب[1]:

قد هوّن الصبر عندي كلّ نازلةٍ وليّن العزم حدّ المركب الخشن

فـ.. لا عجب أن أُعجب به، وأمضي إثر نبراس نظمه بشغفٍ..

- رياضُ الشعر.. لا تُعطيك زهراً إذا لم تُسقْ من نهر الشعورِ!! -

..قد لا أجيد كل ما يُخالجني.. حينما أترنّم بإحدى قصائده[2].

وبزعمي.. أُصرّح بـ: لم يبقَ لي مجال للتعبير عن ذاتي إلا وجهر به عني[3].. حتى كِدتُ أن أقول - والأسف مقدّم - أنه لم يسبقني إلى هذا (العالم)[4] بذاته، بل وبشعره[5]...، فـ.." أ:

...-

وما ضقنا بمقدمك المفدى ولكن.. جئت في الزمن.. الأخير..

[1] وكذا قوله:

أُطاعن خيلاً.. من فوارسها الدهر وحيداً، وما قولي كذا ومعي الصبر

[2] و..أكاد - حينها - أن أستشهد بقول ابن عبد الله عن شعر "الأعشى":

(يخيل لك إذا أنشدته.. أن آخر يُنشد معك!)

[3] قال الشاعر علي الجارم:

تقرأ للمتنبي فتحسُّ أنه يُخاطب كل نفس بأسرارها، وكثيراً ما حدّثنا عن خلجات كُنا نحس بها ونسمع في النفس دبيبها.

[4] - فـ..

يا صاحب القبر.. السلام على من حال دون لقائه القبر

...-

يـا شــاعراً هــزّ الفــؤاد بنبضــه　　　فتحرّكــت في داخلــي الأوتــار"

فليعذرني القارئ العزيز على هذا الإطراء...

بحق من اختارهُ شعره بكينونتي لتكون هذه "النبذة" حاملة عن مخيّلتي[1] خواطر استنتجتها ونسجتها من سيرته..

ولتعكس - بالمضمون - لمتصفحها / آخر أحلام المتنبي.. (الإمارة):

يقولـون مـا أنـت في كـل بلـدة　　　وما تبتغي؟ .. ما أبغي جلّ أن يُسمّى

الذي سعى لعل وعسى بتحقيقه يصل إلى (المجد) الذي تغرّب وقطع الفيافي والقفار ليناله، فكدّ خلف الدنيا حتى قتلته[2].. دون بلوغ مأربه.

...ولسان حاله.. يتمثّل بالحكمة التي أنشأها[3]:

...-

كما قال أبو زبيد المنذر بن حرملة.. في الوليد بن عقبة وقد أسلم على يديه -خزانة الأدب، ص١٥٥/٢ -

(٥) قال امرؤ القيس:

أجارتنـا: إنّـا غريبـان هاهنـا　　　وكـل غريـب للغريـب نسـيبُ

(١) قال أحمد شوقي - يرثي نده (حافظ إبراهيم):

رُتـب الشـجاعة، في الرِّجـال جلائـلٌ　　　وأجلُّهـن شـجاعةُ الآراءِ

(٢) -.. روى قتادة قال: لقيني عمران بن حطان فقال يا أعمى احفظ عني هذه الأبيات:

حتـى متـى تُسـقى النفـوس بكأسـها　　　ريـب المنـون.. وأنـت لاهٍ ترتـع

أفقـد رضيـت بـأن تُعلـل بـالمنى　　　وإلى المنيـة كـل يـوم تُدفـع

أحـلام نـوم أم كظـل زائـل　　　إن اللبيـب بمثلهـا لا يُخـدع

(٣) آخذاً المعنى، من التوجيه الكريم: قال صلى الله عليه وسلم: (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى) - أي ليكن المؤمن مشرئباً دائماً إلى السمو.. والعُلى.

-...

إذا غـــامرت في شـــرف مـــروم فـــلا تقنـــع بمـــا دون النجـــوم

فطعـــم المـــوت في أمـــرٍ حقـــير كطعـــم المـوت فـــي أمـــرٍ عظيـــم

فمعذرة إلى الله[1] أولاً، ثم إلى القارئ الكريم/ إن لم يجد المرمى أنيس، والمرام الذي أصبو إلى إيصاله نفيس[2].

..وشافعي قول عمر أبو ريشة رحمه الله:

فمـــا نحـــن أوّل مـــن بنـــى وبنـــاءه لم يكمـــلِ !

- والله أعلم.. وأحكم، وصلى الله على خاتم رسله.. وسلم -

دمشق

٨/ ٧/ ١٤١٦هـ

...-

والمشهور قول عمر بن عبد العزيز - حين سئل عن تقشفه وهو الخليفة -:

إن لي نفساً تواقة، تـاقت إلى الإمـارة، فلمـا نالتهـا تـاقت إلى الخلافـة..، وهـي تتـوق إلى الجنة.. فلنعمل لها.

(١) ..الاعتذار من الله: نهج المصطفى صلى الله عليه وسلم إذ قال عن الذين خـالفوا أمـره يوم "أحد" (اللّهُمّ: أعتذر إليك مما صنع هؤلاء).. متفق عليه.

وفي الكتاب العظيم قول الحق سبحانه ﴿معذرة إلى ربكم..﴾ سورة الأعراف، آية١٦٤.

ويأتي بعد.. ذاك، من هنات علّها من النقص البشري الذي لا ينفكّ عن قيده.. سوى من عصم الله، راجياً أن لا يحول ذلك عن قبول المُجمل، قال أمير الشعراء:

رُزقـت أسمـح مـا في النـاس مـن خُلـق إذا رُزقـت التمـاس العـذر في الشّـيم

(٢) قال "لاروشفو كولد":

نحن لا نجد أبداً أناساً عاقلين، إلا أولئك الذين يشاطروننا الرأي!

ولا أعثر - بعدها - على من يقول: أتخمتنا بشاعرك،.. إذ هو/ شاعر الدنيا، وشاغل أهلها!!

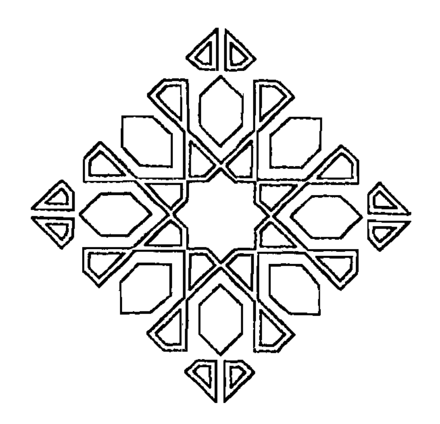


طلائع المراجع

أو/ منها: "شرح ديوان المتنبي" لأبي العلاء المعري، طبعة دار المعارف سنة ١٩٩٢م، "التبيان شرح الديوان" لأبي البقاء العكبري (مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٧١م، - انظر: إيضاح ما تقدم ص١٨ حاشية هامش (١) -، "العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب" للشيخ ناصيف اليازجي (طبعة دار نظير عبود سنة ١٩٩٥م)، "ديوان المتنبي" عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت طبعة ١٩٨٦م، "ديوان أبي الطيب المتنبي" لأبي الفتح عثمان بن جني (بغداد ١٩٨٨م)، و"شرح مشكل أبيات المتنبي" (سنة ٤٥٨هـ) لابن سيده، و"الواضح في مشكلات شعر المتنبي" لأبي القاسم الأصفهاني، و"يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر" (سنة ٤٢٩هـ) للثعالبي، و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" (سنة ٣٦٦هـ) للقاضي الجرجاني، و"الرسالة الموضحة" (سنة ٣٨٨هـ) للحاتمي، و"الكشف عن مساوئ المتنبي" (سنة ٣٨٥هـ) للصاحب بن عباد، و"الإبانة عن سرقات المتنبي" (سنة ٣٥٤هـ) للعميدي، و"الصبح المنبي عن حيثية المتنبي" (سنة ١٠٧٢هـ) للبديعي.

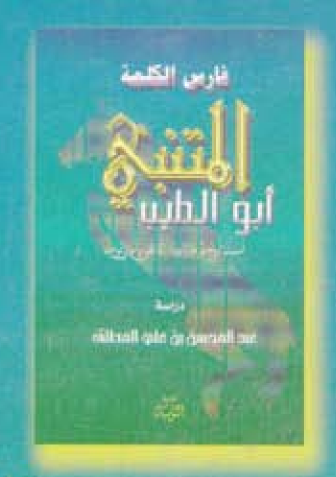
..فضلاً عن آتٍ كـ: "المتنبي" محمد محمود شاكر، و"أبو الطيب المتنبي" للمستشرق (بلاشير)، و"المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس"، لمحمد

التونجي، و"مع المتنبي" للدكتور طه حسين، و"نظرة إجمالية في حياة المتنبي" لمعروف الرصافي، و"المتنبي بين ناقديه" لمحمد شعيب، و"فن المتنبي بعد ألف عام" لإبراهيم العريض، و"المتنبي يسترد أباه" لمحمد الملاح.. "ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام"عبد الوهاب عزام، عبد الله الحيدري "أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين"، سهيل عثمان ومنير كنعان "المحصول الفكري للمتنبي"، محمد كمال حلمي "أبو الطيب المتنبي"، زكي المحاسني "المتنبي"، "جواهر المتنبي" لعبد الله عمر خياط، نورية الشملان "المتنبي الإنسان والشاعر"، عبد العزيز عبد المحسن التويجري "المتنبي".. وغيرها..



العناوين





هذا الكتاب

ليس دراسة أدبية لشعر المتنبي ، بل هي تتبع خطوات هذا الشاعر ونهجه في الحياة و المراحل التي مر بها.
قام المؤلف بدراسة نفسيته و الدخول إلى أعماقه وإبراز ذاته وأحلامه وأمانيه ومجده وماانتهى إليه .

قال عنه ابن رشيق القيرواني
ملأ الدنيا وشغل الناس ....

وقال الصاحب ابن عباد
هذا كالشمس انتشر فأنشدوا شعره ....

الناشر

مكتبة التوبة

ص . ب ١٨٢٩٠ - الرياض ١١٤١٥ - المملكة العربية السعودية
تلفون ٤٧٦٣٤٢١ - فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ - جوال ٠٥٣١٠٤٧٦٥

ردمك: ٢-٦٠-٧٠٤-٩٩٦٠